

2/8/7

٢٩٦٠٤

١٣٢٥

هذه قصة التاج على نور الدين المصري
وما جرى له مع جاريته مريم
الزنازية بنت ملك أفرنجيه
وما فيها من العجائب
على التمام



﴿ محل مبينه ﴾

بمكتبة ملتزمه حضرة الشيخ أحمد على المليجي
قريي من الجامع الأزهر بمصر



طبع بالمطبعة الادبية بسوق الخضار القديم بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعمّا يحكى كانه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والايوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من اكابر التجار ومن الامناء الاحرار الا انه كان مولعا بالسفر الى جميع الاقطار ويحب السير فى البرارى والقفار والسهول والاورار وجزائر البحار فى طلب الدرهم والدينار وكان له عبيد وعمالك وخدم وجواري وطماركب الاخطار وقاسى فى السفر ما يشيب الاطفال الصغار وكان أكثر التجار فى ذلك الزمان الا واحد حسنه مقلا صاحب خيول وبغل وبحناق وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقمشة عديمة المثال من شد ودحميه وثياب بمنيكيه ومقاطع سندسية وثياب مروزيه وتفاصيل هنديه وأزدراب قداديه وبرانس مغربيه وعمالك تركيه وخدم حبشيه وجواري روميه وغللمان مصريه وكانت غرائر أجماله من الحرير لانه كان كثير الاموال بديع الجمل مائس الاعطاف شهي الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر عاب عشاته * والحرب فيما بينهم ثائر

فقال ما للناس فى فجة * قلت على عينك يا تاجر

وقال آخر فى وصفه وأحاد وأنى فيه المراد

وتاجر فى وصله زارنا * والقلب من الحناظه حائر

فقال لى مالك فى حيرة * قلت على عينك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليانور الدين كانه البدر اذا بدى فى ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال نعرف الندو الاعتدال فخلص ذلك النبي يوم من الايام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والاخذ والطاء وقد دارت حوله اولاد التجار فصار بينهم كانه القمر بين النجوم يجيبين أزهر وخذأجر وعدار أخضر وجسم كانه المرمر * كما قال الشاعر

ومليح قال صفتى * أنت فى الوصف رجيح

قلت فولا باختصار * كل ما قيلك مليح

(وكما قال فيه بعض واصفيه)

له خال على صفحات خد * كنقطة عتير فى محن مرمر

والحناط باسياف تنادى * على عاصي الهوى انثأ كبر

فعرمه أولاد التجار وقالوا له يا سيدي علي نور الدين تشتهي في هذا اليوم اننا تنفرج
 نحن وابناك في البستان الفسلي فقال لهم حتى أشاور والدي فاني لأقدر ان أذهب الا
 باجازة فيبيناهم في الكلام واذا بوالده تاج الدين فدأى فظفر اليه ولده وقال يا أبت ان
 أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرج معهم في البستان الفسلي فهل تأذن لي في
 ذلك فقال نعم يا ولدي ثم أنه أعطاه شيئا من المال وقال توجه معهم فركب أولاد التجار
 حيرا وبغالا وركب علي نور الدين بغلة وسار معهم الى بستان فيه ما تشتهيه الانفس وتلذ
 الاعين وهو مشيد الاركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه ايران وباب سماوي
 يشبه أبواب الجنان وبابه اسمه رضوان وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الالوان
 الأحمر كأنه مرجان والأسود كأنه أنوف السودان والابيض كأنه بضع الحمام وفيه
 الخوخ والرمان والكهثرى والبرقوق والفاح كل هذه الانواع مختلفة الالوان
 صنوان وغير صنوان كما قال فيه الشاعر

عنب طعمه كطعم الشراب * حالك لونه كلون العنراب
 بسنن أوراقه زهاقتره * كبنان النساء بين الخضاب
 وكما قال فيه الشاعر أيضا

عنا قيد حكمت لما قدلت * على قضبانها جسمي فحول
 حكمت عسلا وما في اناء * وعادت بعد حصرها شمولا
 ثم انتهوا الى عريشه البستان فراءضوان باب البستان جالس في تلك العريشه كأنه
 رضوان خازن الجنان و أوما كتبوا على باب العريشه هذين البيتين
 سقى الله بستانا دلت قطوفه * فحالت بها الاغصان من شدة الشرب
 اذا رتبت أغصانه بيد الصبا * تنطقها الانواء بالسؤل والرطب
 رد أوما كتبوا في داخل العريشه هذين البيتين
 ادخل بنا يا صاح في روضة * تجلو عن القلب صداهم
 نسيمها يعثر في ذيله * وزهرها يضل في كفه
 وفي ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطيوار من جميع الاصناف والالوان مثل
 فاخت وبلبل وكر وان وقرى وجمام يعرعد على الاغصان وأنها رهاها الماء الجاري وقد
 راقت تلك الحجارة بازهار وأثمار ذات لذات كما قال فيه الشاعر
 سرت النسيم على الغصون فشابهت * حوداء تعثر في جبل ثيابها
 وحكت حداءها السيوف اذا انتضت * أيدي الفوارس من غلاف قراها
 وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر مد على العصور ولم يزل * أبداً يمشل شخصها في قلبه
حتى إذا فطن النسيم سرى لها * من غيرة فاما لها من قربه
وأشجار ذلك البستان عليهما من كل فاكهة روحان وفيه من الرمان ما يشبه أكر القير وان
كما قال فيه الشاعر * ورومان رقيق القشر يحكى * نهود البكر اذ برزت بقولا
إذا قشرته نيد ولدينا * من الياقوت ما بهر الالعولام
(وكما قال فيه الشاعر)

مللمة تبدى مقاصد خوفها * يواقت حمرا في معاطف عبقرى
ورمانة شبيبته إذا رأيتها * بنهد العزاري أو بقبسه صرم
وفيها شفاء للرئيس وصحة * وفيها حديث للنبي المطهر
وقبرها يقول الله جل جلاله * مقبالا ليغا في الكتاب المسطر
وفي ذلك البستان تفاح سكرى ومسكى يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر
تفاحة جمعت لونين قد حكيما * خدى حبيب ومحبوب قد اجتمعا
لا على الغصن كالضدين من محب * فذلك اسود والثاني به لعا
تعا نقا فبدا واش فراعهما * فاحمر ذا خجلا واصفر ذا واما
وفي ذلك البستان شمس لوزى وكافورى وجيلانى وعنابى كما قال فيه الشاعر
والشمس الموزى يحكى عاشقا * جاء الحبيب له مغير لبسه
وكفاه من صفة المتب ما به * يصفر ظاهره ويكفر قلبه
(وقال فيه آخر وأجاد)

أنظر الى الشمس في زهره * حدائق يجلو سناها الخديق
كالانجم الزهر اذا ما زهت * فالغصن يزهر بها فى الورق
وفي ذلك البستان برق وقذراوى وعناب تشفى السقيم من الاوصاب والتين فوق
أغصانه ما بين أحمر وأخضر يحمر العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر
كأنما التين بيدومنه أبيضه * مع أخضرين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد * جن الظلام بهم باقوا على حذر
(وقال آخر وأجاد)

أهلا بئين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضمومة * قد جعت بلا حلق
(قال آخر وأجاد)

أنعم بئين طاب طعاما واكتنى * حسنا وقارب منظر امر من مخبر
يسدى تعاطيه اذا ما ذقته * ربح الاقح وطيب طعم السكر

وحكى اذا ما صب في أطباقه * أكرصنعن من الحبر الاخضر
(وما أحسن قول بعضهم)

قالوا وقد ألفت نفسي تفكها * بغير فاكهة في حبها هاموا
لاي شئ تحب التين قلت لهم * للتين قوم وللجميز أقوام
(وأحسن منه قول الآخر)

التين يعجبني عن كل فاكهة * لما استوى والتوى في غصنه الزاعي
كأنه عابد والسحب ماطرة * فاضت مدامعه من خشية الله

وفي ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ما هو مختلف الألوان صنوان
وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تهنيل كثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفرة

شبهة بالبكر في خدرها * والوجه منها مسبل السترة

وفي ذلك البستان من الخوخ السلطاني ما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر كما قال
فيه الشاعر كأنما الخوخ في روضة * وقد بداخذه العنبدى

بتادق من ذهب أصفر * قد خضت وجهها بالدم

وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبه من داخل
ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسد رطب * مخالفة الأشكال من صنعة الرب

تريه الردى في ليله ونهاره * وان يكن المحجون فيها بلا ذنب

(وقال آخر وأجاد)

أما ترى اللوز حين تظهره * من الأفانين كف مقتطف

وقشره قد جلى القلوب لنا * كأنه الدر داخل الصدف

(وأحسن منه قول الآخر)

يا حسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد كأنما زهوره * نبت عذارا زرد

وقد غدت تلوبه * مزود جامع مفرد كأنها لآلئ * تصان في زبرجد

(وقال آخر وأجاد)

ما أبصرت عيناى مثل اللوز ذا * فى حسنه لما بدت أنواره

الرأس منه بأشمال شائب * حين انتشا وأخضر منه عذاره

وفي ذلك البستان النبق مختلف الألوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض واصفيه
هذا الشعر

انظر الى النبق في الاغصان منتظما * كشمس مجب يزهر على القضب
كان صفرة للناظرين غدت * تحكى جلاجل قد صغت من الذهب
(وقال آخر وأجاد) وسدره كل يوم * من حسناتها فنون

كانما النبق بها * وقد بدا العيون جلاجل من نضار * قد علقت في غصون
وفي ذلك البستان النار فح كانه خولجان كما قال فيه الشاعر الوهاني

وجرامه مثل الكف تزهر بحسنها * فظاهرها نار وباطنها تلج
ومن عجب تلج مع النار لم يدب * ومن عجب نار وليس لها وهج
(وقال بعضهم وأجاد)

وأشجار نار فح كان ثمارها * اذا ما بدت للناظر المنقرس
خود ونساء قد تبرجن زينة * بايام عيد في غلائل سندس
(وقال آخر وأجاد)

كان رب النار فح اذ هبت الصبا * وأضحت به الاغصان وهي تميد
خود وعلمها بهجة الحسن أقبات * عليها بأوقات السلام خدود
(وقال آخر وأجاد)

وشادن قلت له صف لنا * بستاننا هذا ونارنجنا
فقال لي بستانكم طلعتي * ومن جنى النار فح وردي جنى
وفي ذلك البستان الاترج لونه كلون التبر وقد حط عن أعلى مكان وتدلني في الاغصان
فما لتبه وكأنه سائلك العقيان وقد قال فيه الشاعر
أما ترى أيكة الاترج مثمرة * يحشى عليها اذا ما لت من العطب
كانها عند ما من النسيم بها * غصن تحمل قضبان من الذهب
وفي ذلك البستان الكباد متدايا في أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية
المراد كما قال فيه اشاعر وأجاد

وكباده بين الرياض نظرتها * على غصن رطب كقمامة أعيد
اذا ميلتها الریح مالت ككرة * بدت ذهبيا في صولجان زبرجد
وفي ذلك البستان الليمون زكي الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرة زينة تجانيه
وريح يزهو لجانيه كما قال فيه بعض واصفيه

أما ترى الليمون لما بدا * يأخذ أشراقه بالعيان
كانه بيض دجاج وقصد * لطفته الجنس بالزعفران
وفي ذلك البستان من سائر الفواكه وراياح والخضروات والمشومات من الياسمين

والفاغية والغل والسنبيل الغنبري والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل والاس وكامل
 الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه كانه قطعة من الجنان
 لرائته اذا دخل العليل خرج منه كالاسد الغضبان لا يقدر على وصفه اللسان لما فيه من
 الجاثب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان كيف لا واسم بوابه رضوان لكن بين
 المقامين شتان (قلبا) تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج
 والتنزه على ليوان من لوانينه وأجلسوا نور الدين في وسط الليوان على نطم من الاديم
 المزركش متكئا على مخدة مخشوة بريش النعام وظهار تمام دورة سحباية ثم ناولوه
 مروحة من ريش النعام مكتوبا عليها لسان البستان

ومروحة معطرة النسيم * قد (طيب أوقات النعيم
 وتهدي طيبها في كل وقت * الى وحة الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمام والثياب وجلسوا يتحدثون
 ويتنادمون ويتحاذون أطراف الكلام بينهم وكل منهم يتأمل في نور الدين وينظر
 الى حسن صورته وبعد ان اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبدو على
 رأسه سفرة طعام فيها أولى من الصيني والبلور لان بعض أولاد التجار كان أوصى أهل
 بيته بما قبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة مبادئ وطاروسبع في الجار
 كالقطا والسمن وافراخ الحمام وشياه الضان والطف السمك فلما وضعت تلك السفرة
 بينهم تقدموا وكأوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من لا كل قاموا عن الطعام وغسلوا
 أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالماء البارد المنسوجة
 بالحرير والقصب وفدوا النور الدين منديلا مطرزا بالذهب الأحمر فسبح به بديه وجاءت
 القهوة وشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث واذا بخولي البستان ذهب وجاء
 بسلة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا ساداتنا في المسموم فقال بعض أولاد التجار لا بأس
 به خصوصا الورد فانه لا يرد فقال البستاني نعم ولكن عادتنا اننا لا نعطي الورد الا
 بالنادمة فمن أراد أخذه فليأت بشئ من الشعر يناسب المقام وكان أولاد التجار عشرة
 أشخاص فقال واحد منهم نعم اعطني وأنا أنشدك شيئا من الشعر يناسب المقام فتناوله
 خمره من الورد فاخذها وأنشد هذه الابيات للورد عندي محل * لانه لا يمل
 كل الرياحين جندي * وهو الامير الاجل ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ناولوا
 ثم ناول الثاني خمره ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 دونك يا سدي وردة * بد كرك المسك أنفاسها كغادة أبصرها عاشق * غطت
 باكامها رأسها ثم ناول الثالث خمره ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

وردنه من نسر القلب رويته * ثمحي رواتحه ما طاب من يد
 قد ضمه النصف في أوراته طربا * كقبلة بقم من غدير ما صد
 ثم ناول الرابع خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 أما ترى دوحه الورد التي ظهرت * لها بدائع قدر كبن في قضب
 كأنهن يواقيت يطوف بها * زبرجد قد حوى شذر من الذهب
 ثم ناول الخامس خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 قضب الزبرجد قد حن وانما * أثمارهن سبائك العقيان
 وكان وقع انقطر من أوراقه * دمع بكتفه فوتر الاجفان
 ثم ناول السادس خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 يا وردة لم يدع الحسن قد جعت * وأودع الله فيها لطف أسرار
 صكأنها حد محبوب ونقطته * لدى اتواصل مشتاق بدينار
 ثم ناول السابع خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 قلت للورد ما الشوك يؤذي * كل من مسه سربع الجراح
 قال لي معشر الرياحين حندي * أنا سلطانها وشوكي سلاح
 ثم ناول الثامن خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 رعي الله وداغدا أصفر * بهيا نصير ابحاكي النضار
 وحسن غصون به أثمرت * وجلن منه شموسا صغار
 ثم ناول التاسع خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 شجرات ورد أصفر جذبت * في قلب كل متم طربا
 عجبا لها من دوحه سقيت * ماء الاجين فثمرت ذهابا
 ثم ناول العاشر خزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين
 ألم تر أن جند الورد يزهو * بصفر من مطالعه وجر
 وقد شبهته والشوك فيه * نصال زمردي ترس تبر
 فلما استقر الورد في أيديهم أحضر البستاني سفرة المدام ووضع بينهم صينية مزركشة
 بالذهب الأحمر وأنشد يقول
 هتف الفجر بالسنا فاسق خيرا * عانسات تجعل الحليم سقيها
 لست أدري من لطفها وصفها * أبكاس ترى أم الكاس فيها
 ثم إن خولي البستان ملا وشرب ودار الدور إلى أن وصل إلى نور الدين ابن التاجر تاج
 الدين فلا خولي البستان كما سوا ناوله إياه فقال له نور الدين أنت تعرف أن هذا شيء

لا أعرفه ولا شربته قط لأن فيه اثماً كبيراً وقد حرم في كتاب الرب القديم فقال حولي
البيستان ياسيدي نور الدين أن كنت متأثر كنت شربه الآمن أجل الأثم فإن الله سبحانه
وقد على كريم حلیم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ورحمته وسعت كل شيء ورحمة
الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كيف شئت فإن الله ذكركم * وما عليك أن أذنبت من بأس

الاثنين فلا تقر بهما أبدا * الشربك بالله والاضراب بالناس

ثم قال واحد من أولاد التجار يحياي عليك ياسيدي نور الدين أن تشرب هذا القدح
وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق وآخر وقف بين يديه على أقدامه فأسخى نور
الدين وأخذ القدح من خولي البيستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا من فقال
له الشاب خولي البيستان ياسيدي على نور الدين لولا أنه مرما كانت فيه هذه المنافع ألم
تعلم أن كل حلوا إذا كل على سبيل التداوي يجده الآكل مرأواً هذه الخيرة منافعها
كثيرة فمن حلة منافعها أنها تضم الطعام وتصرف الهم والغم وتزيل الريح وتزوق
الدم وتصفى اللون وتنش البدن وشجع الجبان وتقوى همه الرجل على الجماع
ولوا ناذرنا منافها كماها الطال علينا شرح ذلك وقال بعض الشعراء

شربنا وعفوا الله من كل جانب * وداويت أسقامي بمرتشف الكاس

وما عسرتي فيها وأعرف أثمها * سوى قوله فيها منافع للناس

ثم أن خولي البيستان نهض قائماً على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعاً من مخدع
ذلك الإيوان وأخرج منه قع سكر مكرر وكس منه قطعة كبيرة ووضعها النور الدين
في القدح وقال له ياسيدي أن كنت هبت شرب الخمر من حرارته فاشرب الآن فقد
حلا فعند ذلك أخذ على نور الدين القدح وشربه ثم ملاً الكاس واحد من أولاد التجار
وقال ياسيدي على نور الدين أتعبدك وقام آخر وقال أنا خدامك وقام آخر وقال من
أجل خاطري وقام آخر وقال بالله عليك ياسيدي على نور الدين أجبر بخاطري ولم يزل
أولاد التجار العشرة بنور الدين إلى أن سقوه العشرة أقذاح كل واحد قدحا وكان
باطن نور الدين بكرة عمره ما شرب خراطة إلا في تلك الساعة فدار الخمر في دماغه وتقوى
عليه السكر فوقف على حبله وقد ثقل لسانه وانجم كلامه وقال بأجماعه والله أنتم ملاح
وكلامكم مليح ومكانكم مليح إلا أنه يحتاج إلى سماع طيب فإن الشراب بلا سماع عديمه
أولى من وجوده كما قال الشاعر

أدركها بالكبيرة والصغير * وخذها من يد القمر المنير

ولا تشرب بلا طرب فاني * رأيت الخيل تشرب بالصغير

فعدد للشهز الشاه صاحب البستان وركب بقلته من بغال أولاد التجار وغاب ثم
عادوه صبية مصرية * كأنها لية طرية * أوفضة نقية * أودينار في صينية * أوغزال
افى برية * بوجه ينجل الشمس المضيئة * وعيون بابلية * وحواجب كأنها قسي مخفيه
* ونخدود وردية * وأسنان لؤلؤية * ومراشف سكرية * وعيون ممرخية * ونهود عاجية
ويطن خاصية * وأعكان مطوبة * وأرداف كأنها مخدات مخشية ونغذين كالجدول
الشامية * وبينهما شئ كأنه صرة في بقة مطوبة * كما قيل فيها

ولأنهم للشركيين تعرضت * رأوا ووجهها من دون أصنامهم ربا
ولأنها في الغرب لاحت لأهلب * لحلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولوتقلت في البحر والبحر المالح * لاصبح ماء البحر من ربة لها عذبا
﴿ وكأذل آخر ﴾

أبهى من البدر كلاء العيون بدت * كأنما قصتها كف آساد
أرخت عليها السالى من ذوائبها * بيتان الشعر لم يسد دبا وتاد
من ورد وحنتها النيران ما اتقدت * إلا بأفئدة ذابت وأكباد
فلو رآها حسان المصر قن لها * على الرأس وقلن الفضل للبداى
﴿ وما أحسن قول بعض الشعراء ﴾

ثلاثة منعها عن زيارته * خوف الرقيب وخوف الحاسد الخنق
ضوء الجبين وروس الحلى وما * حوت معاطفها من عنده رعب
هب الجبين بفضل الكم تسره * والحلى تفرعه ما حيلة العرق
وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر * في ليلة أربعة عشر * وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر
* فوق جبين أزهر * تدهش العقول * وتحير أرباب العقول * وهي في غاية الحسن
والجمال * ورشاقة القدوالاعتدال * كأنها المرادة بقول الشاعر

أقبلت في غلالة زرقاء * لاذوردية كالسكون السماء
فتحققت في الغلالة منها * قر الصيف في لبالي الشتاء
﴿ وما أحسن قول الآخر وأجوده ﴾

جاءت مبرقة فقلت لها اسفري * عن وجهك القمر المنير الازهر
قالت أخاف العار قلت لها اقصرى * بمحوادث الايام لا تعجبرى
رفعت نقاب الحسن عن وجنتها * فتساقط البيلور فوق الجوهر
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيعة في المحشر
ونكون أول عاشقين تخامسا * يوم القيامة عند رب أكبر

واثول طول في الحساب ووقوفنا * حتى بطول الى الحبيبة منظر على
 ثم ان الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية اعلمي يا سيده الملاح * وكل كوكب للاح *
 اننا ما قصدنا محضورك في هذا المكان الا ان تنادى هذا الشاب الملح سيدي على فخرج
 الذين فاتهم بآيات حملنا هذا الا في هذا اليوم فقالت له الصبية ليتك كنت اخبرتني لاجل
 ان آجي بالذي كان معي فقال لها يا سيدي انا اروح واجي به اليك فقالت له الصبية
 اقل ما بدالك فقال لها اعطني امانة فاعطته منديلا فعند ذلك خرج سريرا وغاب
 ساعة زمانية ثم عاد معه كيس اخضر من حرير اطلس بشكين من الذهب فاحضته
 الصبية منه وحلته ونفضته فزل منه ثنتان وثلاثون قطعة خشب ثم ركبته الخشب في
 بعضه على صورة ذكري في أنثى وأنثى في ذكر وكشفت عن معصمها اقامته فصار
 عودا محكوكا مجرودا مصنعة الهنود ثم انخبت عليه تلك الصبية انحاء الوالدة على
 ولدها وزغزغته بانامل يدها فعند ذلك ازل العود دورن ولا ما كنهه القدح قد حن *
 وقد كرم الماء التي قد سقته والارض التي نبت منها وترى فيها وتذكر التجارين
 الذين قطعوه والدهان الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمرابك التي حملته
 فصرخ وصاح وعدد وناح وكانها سألت عن ذلك كله فاجابها بلسان الحال منشد هذه
 الايات لقد كنت عودا للبلابل منزلا * اميل بها وحدا و فرعي اخضر
 ينوحون من فوق فعلت فوحهم * ومن اجل ذلك النوح سرى مجهر
 رماني بلا ذنب على الارض قاطعي * وصيرني عودا فخيلا كاتروا
 ولكن ضربي بالانامل مخبر * باني قتييل في الانام مصبر
 فن اجل هذا صار كل منادم * اذا ما رأى نوحى بهم ويسكر
 وقد حزن المولى على قلوبهم * وقد صرت في اعلى الصدور اصدر
 تعانق قدى كل من فاق حسنها * وكل عزال ناعس الطرف احور
 فلا فرق الله المهيم بيننا * ولا عاش محبوب يصد ويهجر
 ثم سكنت الصبية ساعة وبعد ذلك اخذت ذلك العود في حجرها وانخبت عليه انحاء
 الوالدة على ولدها وضربت عليه طرقا عديدة ثم عادت الى طريقها الاولى وانشدت
 هذه الايات لو انهم جفحو اللصب اوزاروا * لحط عنه من الاشواق اوزار
 وعندليب على غصن يشاجره * كانه عاشق شنت به الدار
 ثم واثبه قليلى الوصل مقمرة * كانه باجتماع الشمل اسحار
 واليوم في غفلة عنا حواسنا * وقد دعتنا الى اللذات اوتار
 اما ترى اربعا لله وقد جمعت * آس وورد ومنتور ونوار

واليوم قد جفت للخط أربعة * صب واخل ومشروب ودينار
 فانظر بظلمك في الدنيا فلذتها * تفنى وتبقى روايات وأخبار
 فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الايات نظرا اليها بعين المحبة حتى كاد لا يملك نفسه
 من شدة الميل اليها وهي الاخرى كذلك لانها نظرت الى الجماعة الحاضرين من أولاد
 التجار كلهم والى نور الدين فرأته بينهم كالقمريين النجوم لانه كان رخم اللفظ والدلال
 كامل القدوالاعتدال والبهاء والجمال ألطف من النسيم وأرق من التسنيم ثم
 أنشدت هذه الايات

قسما توحيته وباسم ثغره * وباسمهم قد رايتها من سحره
 وبلين معطفه ونبل لحظه * وبياض غرته وأسود ثغره
 وبجانب حب الكرى عن ناظري * وسطا على نهيه وبامره
 وعقارب قد رسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهيمه
 وبورد حديه وآس عذاره * وعقيق مبسمه ولؤلؤ ثغره
 وبغصن قامته الذي هو مشمر * رمانه يزهو حناء بصدره
 وبزرقه المرتج في حركاته * وسكونه وبرقة نى خصره
 وحريره لمسه وخفة ذاته * وبما حواه من الجمال بأسره
 ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروى طيبها عن نشره
 وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال نلأسة من طغره

فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها أعجبه نظامها وكرام قد مال من السكر
 فجعل يمدحها ويقول

عوادة مالت بنا * في نشوة المنتمذ * قالت لنا أوتارها * أنطق الله الذي
 فلما تكلم نور الدين بهذا الكلام وأنشد هذا الشعر والنظام نظرت له تلك الصبية
 بعين المحبة وزادت فيه عشقا وغراما وتصارعت متبجعة من حسنه وجماله ورشاقه
 فده واعتداله فلم تملك نفسها بل احتضنت العود ثانيا وأنشدت هذه الايات

يعاتبني على نظري اليه * ويهجرني ويرحى في يديه
 ويبعدني ويعلم ما يقبلي * كان الله قد أوحى اليه
 كتبت مثاله في وسط كفي * وقلت لنا ظري عول عليه
 فلا عيني ترى عنه بدلا * ولا قلبي يصبرني لديه
 فيا نلبي ترعنتك من فؤادي * لانك بعض حساى عليه
 اذا ما قلت يا قلبي تسلى * فقلبي لم يعمل الا اليه

فلما أنشدت الصبية تلك الايات تجب نور الدين من حسن شعرها وبلاغه كلامها
وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد والهايام ولم يقدر أن
يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال اليها وضمها الى صدره ضم العاشق الوهان
فانطبقت عليه وصارت بكلتها لديه وقيلته بين عينيه وقبل هوفاها بعد ضم القوام
ولعب معها في التقبيل كزق الحمام فالتفت له وفعلت معه مثل ما فعل معها فقام
الحاضر ون وداموا على اقدامهم فاستحي نور الدين ورفع يده عنها ثم انها خذت عودها
وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت الى الطريقة الاولى وأنشدت هذه الايات

فريسل من الجفون اذا انتنى * عضبا وهزأ بالعزال اذارنا

ملك محاسنه البديعة جنده * ولدى الطعان قوامه يحكى القنا

لو أن رفته خصره في قلبه * ماجار قط على الحب ولا حنى

بأنله القاسى ورقه خصره * هلا نقلت الى هنا من ههنا

يا عاذلى في حبه كن عاذرى * فلك البقاء بحسنه ولى القنا

فلما سمع نور الدين حسن كلامها وبدع نظامها مال اليها من الطرب ولم يملك عقله
من شدة الحب ثم انه أنشد هذه الايات

لقد خلطت الشمس الضهى فتخلت * لكن لبيب الحسر منها بهجتى

وماذا علمها لو أشارت نسلمت * علينا باطراف البنان وأومت

رأى وجهها الا حى فقال وتاهى * محاسنها الا لاني عن الحسن جلت

أهذى التي ندمت شوقا ليحيا * وانك معذور فقلت هي التي

رمتني بسهم الخط عمد او مارثت * لحالى ونلى وانك كسارى وغربى

فاصبحت مسلوب الفؤاد متيما * أنوح وأبكي طول يومى وليتى

فلما فرغ نور الدين من شعره تجببت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها
وضربت عليه باحسن حرركاتها وأعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الايات

وحيات وجهك احياء الانفس * لا حلت عنك نبت أم لم تنبت

فلئن جفوت فان طيفك واصل * أو غبت عن عيني فذكرك مؤنس

يا موحشا طرفى وتعلم اننى * أبدا بغير هواك لم استأنس

خداك من ورد ورقك خجرة * هلا سمحت بها بهذا المجلس

فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غايه الطرب وتجبب منها غايه الجبب
ثم أجابها على شعرها بهذه الايات

ما أسفرت عن محيا الشمس في الفسق * الا تجبب بدرالسم في الاق

ولا بدت لعين الصبح طربها * الاوعوذت ذاك الفرق بالقلق
 خذعن مجارى دموعي في تسلسها * واروحدث الهوى من أقرب الطرق
 ورب راميسة بالنبل قلت لها * مهلا بينك ان القلب في فرق
 ان كان دمعى لبحر النيل نسبه * فان وذلك منسوب الى الملق
 قالت فهات جميع المال قلت خذى * قالت ونومل ايضا قلت من حدقى
 فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طرعة لها واندهش لها وقد
 احتوى على مجامع قلبها فاضمنه الى صدرها وصارت تقبله تقبلا كزق الحمام وكذلك
 هو الآخر قابلهما بتقبيل متلاحق ولكن الفضل السابق وبعد أن فرغت من تلك
 النقييلاب أخذت العود وأنشدت هذه الايات

ويلا ويلي من ملامة عاذلي * أشكوه أم أشكوا اليه غملي
 يا هاجري ما كنت أحسب أنتي * ألقى الاذانة في دواك وأنتي
 عفت أرباب الصباية بالهوى * وأبحت فيك لها ليل نذالي
 بالامس كنت ألوم أرباب الهوى * واليوم أعذر كل صب مبتلي
 وان اعترني من فراشك شدة * أصبحت أدعوا لله باسمك يا علي
 فلما فرغت تلك الصبية من شعرها أنشدت أيضا هذين البيتين
 قالت لي العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ورحيق فيه السلسل
 ندعوا اله العالمين يحبنا * ويقول فيه الكل متنايا علي

فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظم تعجب من فصاحة
 لسانها وشكرها على طرافة افتنانها وأثنى عليها غاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء نور
 الدين عليه قامت من وقتها وساعتها على قدميها وقلعت جميع ما كان عليها من ثياب
 ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست على ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلى شامتي
 خديه ووسمت له جميع ذلك وقالت له اعلم يا حبيب قلبي ان الهدية على مقدارها ديها
 فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها في فخما وخديها فلما انقضى ذلك ولم يدم الا
 الحى انقيوم رازق الطاوس واليوم قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدميه
 فقامت الصبية الى أين يأسى يدى فقال لها الى بيت والذى خلف عليه اولاد التجار أنه
 ينام عندهم فأبى وركب بغلته ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه
 وقالت له يا لى ما سبب غيابك الى هذا الوقت والله انك قد شوش على وعلى والدك
 بغيابك عنار قد اشتغل خاطرنا عليك ثم ان أمه تقدمت اليه تقبله في فقه فسمت منه
 رائحة الخمر فقالت لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم يا ولدى كيف بعد الصلاة

والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصى من له الخلق والامر فينبهاهما في الكلام واذا
 بوالده قد اقبل ثم ان نور الدين ارغم في الفراش ونام فقال ابوهم ما النور الدين ~~هكذا~~
 فقالت له امه كان رأسه أوجعته من البستان فعند ذلك تقدم له والده لساأله عن
 وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من
 يشرب الخمر فقال ويحك يا ولدي هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما
 سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو سكران واطمعه بها فجاءت اللطمة بالامر المقدر
 على عين والده اليمنى فسالت على خده فوق وقع على الارض مغشيا عليه واستمر في غشيته
 ساعة فرشوا عليه ماء الور فلما افاق من غشيته أراد أن يضرب به فنعته امه مخلف
 بالاطلاق من امه انه اذا أصبح الصبح لابد من قطع يده اليمنى فذه سمعت امه كلام والده
 ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره لى أن غلب عليه
 النوم فصبرت الى أن طلع القمر وأتت الى ولدها ونذرت له الكفر فقالت له نور
 الدين ما هذا الفل القبيح الذي فعلته مع والدك فقال لها وما الذي فعلته مع والذي
 فقالت انك اطمعته بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد حلف بالاطلاق انه اذا
 أصبح الصبح لابد أن يقطع يده اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه
 الندم فقالت له امه يا ولدي ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغي لك أن تقوم في هذا
 الوقت وتهرب وتطلب العجاة لتفلس وتختفي عند خروجه حتى تصل الى أحد من
 أصحابك وتنتظر ما يفعله الله فانه يغير حاله بعد حال ثم ان امه فحقت صندوق المال
 وأخرجت منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له يا ولدي خذ هذه الدنانير واستعن بها على
 مصالحك ماذا فرغت منك يا ولدي فارسل اعلمني حتى أرسل اليك غيره واذا
 راسلتني فارسل الى اخبارك سرا ففعل الله أن يقدر له فرجا وتعود الى منزله ثم انها
 ودعته وبكت البكاء الشديد الذي ماعليه من مزيده فعند ذلك أخذ نور الدين كيس
 الدنانير من امه وأراد أن يخرج فرأى كيسا كبيرا فندس فيه امه بجنب لصندوق
 فيه ألف دينار فأخذه نور الدين ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الرقاق وتوجه
 قبل الفجر الى جهة بولاق فلما أصبح الصبح وقامت الخلائق توحده المثلث الفتحاح
 وخرج كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما نسب الله تعالى له كان نور الدين وصل
 الى بولاق فصارعش على ساحل البحر فرأى من كبرياءه ما لم يدره والناس تطلع فيها
 وتنزل منها وهي اسير أربع مدقوقة في البر وراى البحر به واقفين فقال لهم نور الدين
 الى أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة أسكندرية فقال لهم نور الدين خذوني معكم
 فقالوا أهلا وسهلا وهي حبابك يا شهاب ياملج فعند ذلك نهض نور الدين من وقته

وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوادة وفرش وغطاء ثم رجع الى المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين في المركب لم تمكث الا قليلا وسارت من وقتها وساعتها ولم تزل تلك المركب سائرة حتى وصلت الى مدينة رشيد فلما وصلوا الى هناك رأى نور الدين زورا قاصفا سائرا الى الاسكندرية فنزل فيه وعدى الخليج ولم يزل سائرا الى أن وصل قنطرة تسمى قنطرة الجاحي فطلع نور الدين من ذنب الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه فلم يظروا أحدا من الواقفين بالباب فتسنى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية فقرأها مدينة حصينة الأسوار حسنة المنزهات تذل لساكنها وترغب في استيطانها قدولى عنها فصل الشتاء يبرده وأقبل عليها فصل الربيع يورده وازدهت أزهارها وأورقت أشجارها وأينعت أنمارها ونفذت أنهارها وهي مدينة مليحة الهندسة والقياس وأهلها أجناد من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها. هي كما قيل فيها هذه الايات قد قلت يوما لجل * له مقال فصيح * اسكندرية صفها فقال ثمر ملبح * قلت وفيها معاش * فقال ان هب ربيع * وقال فيها أيضا بعض الشعراء *

اسكندرية ثغر * رضاه يستطاب * ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصبا غراب
فتسنى نور الدين في تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى ان وصل الى سوق التجارين ثم الى سوق الصرافين ثم الى سوق النقابة ثم الى سوق الفكهاية ثم الى سوق العطارين وهو يتبع من تلك المدينة لان وصفها قد شاكل اسمها فيمنما هو يمشي في سوق العطارين واذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه ثم أخذته من يده ومضى به الى منزله فرأى نور الدين زقا قاعا ملحا مكنوسا ممشوا قد هب عليه النسيم وراق وظلمته من الاشجار أوراق وفي ذلك الزقاق ثلاث دور وفي صدر ذلك الزقاق دار أساسها راسخ في الماء وحدرانها شاهقة الى عنان السماء قد كنسوا الساحة التي قدامها ورشوها وتشم روائح الازهار قاصدوها يقابلها النسيم كأنه من جنات النعيم فاول ذلك الزقاق مكنوس ممشوش وآخره بالرخام مفروش ورخل الشيخ بج نور الدين الى تلك الدار وقدم له شأ من الماء كولا وكل معه فلما فرغ من الاكل قال له الشيخ متى كان القدوم من مدينة مصر فقال له يا ولدي في هذه الليلة قال له ما اسمك قال علي نور الدين فقال له وما اسم أبيك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ يا ولدي يا نور الدين يلزم مني الطلاق ثلاثا انك دأمت مقيما في هذه المدينة لا تفارقني وأنا أأخلى للشو ضعا تسكن فيه فقال له نور الدين يا سيدي الشيخ زدني بلك معرفة فقال يا ولدي اعلم اني دخلت مصر في بعض

الحسين بجارة فبعثها فيه واشترى بتحتجر آخر فاحتجت الى ألف دينار فوزنها عنى
والدك تاج الدين من غير معرفة له بنى ولم يكتب على هاهن شورا وصبر على بها الى ان
رجعت الى هذه المدينة وأرسلتها اليه مع بعض غلمانى ومعهما هدية وقد رأيتك وانت
صغير و ان شاء الله تعالى انا زيلك بعض ماضل والدك معى فلما سمع نور الدين هذا
الكلام أظهر ما فرح والابتسام وأخرج الكيس الذى فيها ألف دينار وأعطاه لذلك
الشيخ وقال لا خذها ودع عندك حتى اشترى بها شيئا من البضائع لا تجر فيه ثم ان
نور الدين اقام فى مدينة اسكندرية مدة أيام وهو يتفرج كل يوم فى شارع من شوارعها
وياكل ويشرب ويتلذذ ويطلب الى أن فرغته المائة دينار التى كانت معه رسم
النفقة ما تى الى الشيخ المطار لياخذ منه شيئا من الالف دينار وينفقه فلم يجد به الدكان
فجلس فى الدكان ينتظره الى أن يعود وصار يتفرج على التجار ويتأمل ذات اليمين
وذا اب السار فيمنما هو كذلك واذا باعجمى قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة
وخلفه جارية كأنه فضة نقيه أو بلطية فى فسقية أو غزالة فى برية توجه به يحجل الشمس
المضيئة ويعيون بالبلية ونهود عاجية وأسنان لؤلؤية وبطن خرافية وأعطاف مطوية
وسيقان كاطر فى اية كاملة الحسن والجمال وشاقه القدر والاعتدال كما قال فيه بعض
واصفها كأنها مثل ما تهواه قد خلقت * فى رونق الحسن لا طول ولا قصر
الورد من حدها يحمر من خجل * والفصن من خدها يزدهو به الثمر
فالمدر طافتها والمسك نكهتها * والفصن قاسها ما مثلها بشر
كانها أفرغت من ماء لؤلؤة * فى كل جارية من جسمها فسر
ثم ان الاعجمى قرأ عن بغلته وأنزل الصبية وصاح على الدلال فحصر بين يديه فقال
لهم خذوا هذه الجارية وناد عليها فى السوق فأخذها الدلال ونزل بها الى اسوق وعاب
ساعة ثم عاومعه كرسى من الأبنوس مزر كس بالعاج الابيض فوضعه الدلال على
الارض واجلس عليه تطلب الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من منحنى وجه
كانه رسدنى او كوكب درى وهى كأنها البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بغاية الجمال
الباهر كما قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جلا حسن صورتها * فراح منكسقا وانشق بالغضب
وسرحه البان ان قيس بقامتها * ثبت يداها اذا جمالة الخطب

﴿وما أحسن قول الآخر﴾

قل للبيعة فى الحمار المذهب * ماذا فعلت بعابى مستره

نور الجار ونور وجهك تحته * هزما بضوئهما جيوت من القهب
 وإذا أتى طرفي لسرق نظرة * في الخلد حراس برمته بكونك

فعند ذلك قال الدلال للتجار كم دفعتم في درة الغواص وقتية القناص فقال له تاجر من
 التجار عن بمائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلاثمائة ولم ينزل التجار ينزادون
 في تلك الجارية أنى أن أوصلوا عنها إلى تسعمائة وخمسين ديناراً ووقفوا يبيع على
 الإيجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الأعجمي سيدها وقال له إن جاريتك
 بلغت ثمنها تسعمائة وخمسين ديناراً فهل تبيع وتقبض لك الثمن فقال الأعجمي هل هي
 راضية بذلك فإني أحب مراءاة خاطرها لا في ضعف في هذه السفرة وخدمتي هذه
 الجارية غاية الخدمة فطقت أني لا أبيعها إلا لمن تشتهي وتريد وجعلت يبيعها بيدها
 فشاورها ما إن قامت رضيت فعملها من أرائه وإن قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال
 إليها وقال لها يا سيد الملاح أعلى أن سيدك قد جعل يبيع بيديك وقد باع ثمنك
 تسعمائة وخمسين ديناراً أفأأذن لي أن أبيعك فقالت الجارية للدلال أرى الذي يريد
 أن يشتري بي قبل انعقاد البيع فعند ذلك جاء الدلال بها إلى رجل من التجار وهو شيخ
 كبير هرم فظفرت أيتها الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفت إلى الدلال وقالت له
 يا دلال هل أنت مجنون أم مصاب في عقلك فقال لها الدلال لاى شئ يا سيدة الملاح
 تقولين لي هذا الكلام فقالت له الجارية أيجل لك من الله أن تبيع مثلى لهذا الشيخ
 الهرم الذي قال في شأن زوجته هذه الآيات

تقول لي بوى غضبي من نكلاها * وقد دعيت إلى شئ فما كانا
 أن لم تشكني نيلك المرء زوجته * فلا تلني إذا أصبحت قرنانا
 كان أبرى شمس من دخاوت * فكلما عركته راحتي لا نا
 ﴿وقال في آية أيضاً﴾

لي ابرينام لزما وشؤما * كلما نلت من حبيب وصلا
 اذا ما عدوت في البيت فردا * طاب الطعن وحده والنزلا
 ﴿وقال في آية أيضاً﴾

ولي ابرسوء كثير الجفا * يعامل بالثوم من بكره
 اذا غت قام وان قتنا * مقلارحم الله من يرحمه

فلما سمع شيخ التجار من تلك القصيدة هذا المجدوا غناط الغظ الشديد الذي ما عليه
 من مزبد قال للدلال يا انفس الدلائل ما جئت لنا في السوق الا بجارية مشؤمة تجتري
 على رهنه جوفى بين التجار فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها يا سيدتي

لا تكوني قالة الادب ان هذا الشيخ لذى هجوتيه هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب
مشورة التجار فضحكوا وأنشدت هذين البيتين

يصلح للحكام في عصرنا * وذلك للحكام مما يجب

الستق للراي على يابه * والضرب بالدره للحتسب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله يا سيدي أنا لا أباع لهذا الشيخ فبعضي لغيره لانه ربما
خجل مني فباعني الى آخره فاصير عمتنه ولا ينبغي لي أن أدنس نفسي بالامتهان وقد
علمت أن أرببي مفوض الى فقال لها الدلال سمعنا وطاعة ثم توجه بها الى رجل من
التجار الكبار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها يا سيدي هل أبيعك لسيدي شريف
الدين هذا اتسمعتة وخمسين ديناراً فرت اليه الجارية فرأته شجاعاً ولكن لحيته
مصبوغة فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك حتى تبيعني لهذا الشيخ
الفاني فهل أنا من كنتك المشاق أو من مهلهل الاخلاق حتى تطوف بي على شيخ بعد
شيخ وكلاماً ما تجد أربل الى السقوط أو عفريت محقه النجم بالمهبط أما الاول فانه
نطق لسان الحمار فيه يقول من قال

طلبت قبلتها في تفسيرها فبكت * بدردمع على الخدين منتظم

ثم اثنت كغزال وهي قاذلة * لا والذي أوجد الاشياء من عدم

ما كان لي في بياض الشيب من ارب * في الحياة يكون لقطن حشوفي

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

قاوا بياض الشعر نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضياء

حتى يباخط المشيب بعفرى * فوددت أن لا أعدم الظلماء

لو أن لحية من شيب صحيفة * عماده ما اختارها بيبضاء

﴿وأحسن منه قول الآخر﴾

ضيف المبراسي غير محتشم * السيف أحسن فعلامه باللم

أبعد بعدت بياضاً لا بياض له * لانت أسود في عيني من الظلم

وأما الآخر فانه ذو عيب وريب ومسود وجهه شيب قد اتى في حضاب شبيه بأقمع ميين

وأنشدت هذين البيتين

قالت أراك حشيت الشيب قلت لها * كتمته عنك يا مسمي ويا بصري

فقههت ثم قالت ان ذاعجب * فكأثر الغش حتى صار في الشعر

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

يا من يخضعب بالسواد مشيه * كي يستقر له الشباب ويحصل

هالك اختضب بسواد خطي مرة * ولت الضمان بانه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذي صبح لحيتهم تلك الجارية هذا الكلام اغتاط الغبط الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال يا أنجس الدلائل ما جئت في هذا اليوم - وقتنا البحارية سفيهة تسفه على كل من في السوق واحد بعد واحد وتهجوهم بالاشعار والكلام الفشار ثم ان ذلك التاجر نزل من مكانه وضرب الدلال على وجهه فأخذ هذا الدلال ورجع بها وهو غصصان وقال والله ما رأيت عمري جارية أذل حيا من لم وقد قطعت ورقي ورزني في هذا النهار ونقضني من أهلك جميع التجار فراهما في الطريق وجل من التجار فزاد في ثوبا عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر تهاب الدين ما سألني الدلال الجارية في البيت فقالت أرني آياه حتى أنظر اليه رأسا له عن حاحه ما كانت تلك الحاحية في بيته فأنا أبع له والافلا فخلاها الدلال واقفة ثم تقدم اليه وقال له ياسيدي شهاب الدين اعلم ان هذه الجارية كانت لانهاتريد أن تسألت عن حاجة فان كانت عندك ما نحتاجه لك وهأت قد سمعت قالته لاصحابك من التجار واني والله خائف أن أجي بها اليك فعمل منك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا منك مفضوحا فان أذنت لي في المجي بها اليك فعلت فقال له انتني ما فعل الدلال سمعوا طاعة ثم ذهب الدلال واتي بالجارية اليه ونظرته الجارية وقالت له ياسيدي شهاب الدين دل في بيتك مدورات محشوة بقطاعة ففرو لسحاب فقال لها نعم ياسيدة للراح عندي في البيت عشر مدورات محشوة بقطاعة ففرو السنجاب في الله عليك ماذا تصنعين هذه المدورات فقالت أصبر عليك حتى ترتدوا أجلها على قلب وأنقل حتى تموت ثم انها التفتت الى الدلال وقالت له يا أنجس الدلائل كان لك محزون حتى تهرضني من منذ ساعة على اثنين من اشوخ في كل واحد منهما عيان وبه ذلك تهرضني على سيدي شهاب الدين فيه ثلاثة عيوب الاول أنه قصير والثاني أن أنفه كبير والثالث ان لحيته طويلة وقد قال فيه بعض الشعراء

ما رأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الحلائق أجمع

فسله لحية ذراع وأنف * طول شروا طوله أصبع

﴿وقال بعضهم أيضا﴾

منارة الجامع في وجهه * كهيئة المنصر في الخاتم

لودخل العالم في أنفه * أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام زل من الله كان وأخذ بطوق الدلال وقال له يا أنجس الدلائل كيف تأتي اليك البحارية فوبختا وتهجونوا واحدا بعد

واحطبالاشعار والكلام الفشارف عند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها
والله طول عمرى وأنا فى هذه الصناعة ما رأيت جارية أقل أدباً منك ولا أنفوس عى من
تجمل لآل - قد قطعت رزقى فى هذا اليوم ولا ربحت منك إلا الصفع على النقا والاختد
بالتوق ثم إن الدلال وقف بتلك الجارية أيضاً على تاجر صاحب عبيد وغلمان وقال
لها اتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين فترته فوجدته أحدب فقالت إن هذا
أحدب وقد قال فيه الشاعر

قصرت منكبه وطول فتاره * فمكاد شيطان يصادف كوكبا
وكانه قد خاف أول سره * واحس نانية قصار محبدا *
﴿وقال فيه أيضاً﴾ اذارقى احديكم بغلة * صارها بين الورى مثله

اماله المحل ولا تمجبوا * ان جفلت من تحت البغلة

﴿وقال فيه أيضاً بعض الشعراء﴾

ولرب أحدب زان فى حديثه * تهاوقا طبة العيون تمجه
فكانه غصرتة من راس * ولواء من طول المدى اثرحه

فعند ذلك اسرع الدلال اليها واخذها ووقىها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا
فقطرت اليه فوجدته أعشى فقالت إن هذا أعشى كيف تبعنى له وقد قال فيه بعض
الشعراء

ومدبه أمراضه * هدت قواه لحيته

يا قوم قوموا بانظروا * هذا القذى فى عينه

فعند ذلك أخذها الدلال وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه
فراحت لحيته كبيرة فقالت للدلال وبلك إن هذا الرجل كرش ولكن طلع ذيله من
حلقه كيف تبيخى لى أنفوس الدلائن يا سميت إن كل طويل الدمن قليل العقل وعلى
قد طول اللحية يكون نقصان العقل - هذا أمر مشهور بين العقلاء كما قال بعض الشعراء

ما رجل طلت له لحية * فزادت اللحية فى هيئته

الاولما ينقص من عقله * يكون طولاً زاد فى لحيته

﴿وكما قال بعض الشعراء أيضاً﴾

لنا صديق وله لحية * طوله الله بلا فائدة

كانها بعض لى الشتا * طويله مظلمة تارده

فعند ذلك أخذها الدلال ورجع فقه لت له الى أين تتوجه بي فقال لها الى سيدك
الاعجمى وكفانا ما جرى لنا بسببك فى هذا الهاروت وتسميت فى منع رزقى ورزقه بقوله
أدبك ثم إن الجارية نظرت فى السوق والتفتت يمينا وشمالا فوقع نظرها بالامر المقدر

على نور الدين على المصري فرأته شاباً مليحاً في الخدر شق القدر وهو ابن أربعة عشر سنة يدسح الحسن والجمال والظرف والدلال كأنه البدر إذا بدر في ليلة أربع عشرة يجبين أزهر وخذأحمر وعنتق كالمرمر وأسنان كالجوهر ووريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض واصفيه بدت لها كي حسنة وجماله * بدور وغزلان فقلت لها قني زويدك يا غزلان لا تشبهني * بهذا ويا أقمار لا تنكفي ﴿ وما أحسن قول بعض الشعراء ﴾

ومعجزة من شعره وجيبته * تغدو والورى في ظلمة وضياء
لا تذكر والجمال الذي في خده * كل الشقيق ينقطه سوداء

فلما نظرت تلك الجارية إلى نور الدين حال بينها وبين عفتها ووقع في خاطرها موقعا عظيما وتعلق قلبها بجمجمته فالتفتت إلى الدلال وقالت له دل هذا الشاب التاجر الذي هو الساب بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودي ما زادت في ثمن شيئا فقال لها الدلال يا سيده الملاح ان هذا الشاب غريب مصري ووالده من أكابر التجار بمصر وله انفضل على جبع تجارها وأكبرها وله مدة يسيرة في هذه المدينة وهو مقيم عند رحل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعته من أصبعها خاتم يافوت مشتمنا وقالت له دل أو صلي عنده هذا الشاب الميخ بان اشتراكي كان هذا الخاتم لك في نظير تبك في هذا اليوم معنا ففرح الدلال وتوجه بها إلى نور الدين فلما صارت عنده تأملت فرأته كأنه بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القدر والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفا في وجهه ماء الجمال * ومن الحظا طهرى النبال * ويشرب كل صبا ان سقاء
بمن صدرده والوصل حالى * فغرتة قامتة وعشقي * كمال في كمال في كمال
وان غلائل له ثواب منه * مزرة على طوق الهلال * ومقلته وخلاه ودمعي
ليال في ليال في ليال * وحاجبه وطلعتة وجسمي * دلال في دلال في دلال
وطافت مقلته بكاس خمر * على امشاق ابن عمر رحلالي * وارشفني على ظمأ زلالا
ييامم ثغره يوم الوصال * فقلبي عنده ودعي لديه * حلال في حلال في حلال
ثم ان الجارية نظرت إلى نور الدين وقالت له يا سيدي بالله عليك أما أنا مليحة فقال لها يا سيده الملاح وبدر كل كوكب لاح ودل في الدنيا أحسن منك فقال له الجارية ولأى شئ رأيت التجار كلهم زادوا في ثمنى رأيت ساكن ما تكلمت بشئ ولا زدت في ثمنى ديناراً واحداً كنتي ما أعجبتك يا سيدي فقال لها يا سيدي لو كنت في بلدي كنت اشتريتك بجميع مملكتي من المال فقال له يا سيدي أنا ما قلت لك اشتريني على غير مر أدك

ولكن لو زدت في ثمنى شيئا لجبرت بخاطري ولو كنت لا تشتري لأجل أن تقول التجار
 لو أن هذه الجارية مملوكة ما زاد فيها هذا التاجر المصري لأن أدلى مصر لهم خبيرة
 بالجواري فعند ذلك استحي نور الدين من كلام الجارية الذي ذكرته واجر وجهه وقال
 للدلال كم يبلغ ثمن هذه الجارية قال بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين ديناراً غير الدلالة وأما
 قانون السلطان فانه على البائع فقال نور الدين للدلال خلها على بألف دينار دالة وثمنا
 فبادرت الجارية وتركت الدلال وقالت بعت نفسي لهذا الشاب الملاح بألف دينار
 فسكت نور الدين فقال واحد بعناه وقال آخر يستاهل وقال آخر ما عون ابن ملعون
 من يزيد بعد هذا وقال آخر والله انهم يصلحون لبعضهما فاقم شعر نور الدين الا والدلال
 أحضر القضاة والشهود وكتبوا عقد البيع والشراء في ورقة وناولها لنور الدين وقال
 له تسلم جاريتهك الله بحملها مباركة عليك لا تصلح الا لك ولا تصلح أنت الا لها وأشد
 الدلال هذين البيتين أتمته السعادة منقادة * اليه شجر جردا بماها
 فلم تل تصلح الا له * ولم يلك تصلح الا لها

فعند ذلك استحي نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الاف دينار التي كان
 وضعها وبيعة عند العطار صاحب أبيه وأخذ الجارية وأتى بها الى البيت الذي أسكنه
 فيه الشيخ العطار فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطاً خلقتا ونطعا عتقا فقالت
 له يا سيدي هل أنا مالي منزلة عندك حتى تجعلني في غير بيتك الأصلي الذي فيه
 مصالحك ولاي شيء ما دخلت بي عند أبيك فقال ها نور الدين واثمة يا سيده الملاح
 ما هذا بيتي الذي أنا فيه ولكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أحلها لي
 وأسكنني فيه وقد كنت لك انني غريب وأنتي من أولاد مدينة مصر فقالت له الجارية
 يا سيدي أقل البيوت يكفي الى أن تطلع الى بلدك ولكن يا سيدي بالله عليك أن تقوم
 وتأتي انما بشي من اللحم المشوي والمداوم والنقل والفاكهة فقال له نور الدين الله
 يا سيده الملاح ما كان عندي من المال غير الاف دينار والوزي تم في غمك ولا أم لك غير
 تلك الدنانير شيئا من المال وكان سي بعض دراهم صرفها بالامس فقالت له امالك في
 هذه المدينة صديق تفترض منه خمسين درهما وتأتي بها حتى أقول لك أي شيء تفعل
 بها فقال لها مالي صديق سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه الى العطار وقال له اسلام
 عليك يا عم فرد عليه اسلام وقال له يا ولدي أي شيء شريت بالاف دينار في هذا اليوم
 فقال له اشترت بها جارية فقال له يا ولدي هل أصابك جنون حتى تشتري جارية واحدة
 بألف دينار يا ليت شعري ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين يا عم انم جارية من
 أولاد الافرنج فقال له الشيخ اعلم يا ولدي ان خيار أولاد الافرنج عندنا في هذه المدينة

عنهما ثمة دينار ولكن والله يا ولدي قد علمت عليك حيلة في هذه الجارية فان كنت
 حبيبتا فبنت عندها في هذه الليلة واقض غرضك منها واصمبح فازلها السوق وبعها
 ولو كنت تخسرهما ثمة دينار وقد رأينا غرقنا في البحر أو طلع علينا اللصوص في
 الطريق فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن يا عم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الالف
 دينار التي اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق معي شيء أنفقته ولا درهم واحد والى أريد من
 فضلك واحسانك أن تقرضني خمسين درهما أنفقها الى غد فأبيع الجارية وأرد هالك
 من ثمنها فقال الشيخ أعطيك يا ولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال
 له يا ولدي أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مليحة وربما تعلق بها قلبك فها هيون
 عليك أن تبيعها وأنت لملك شيء أنفقته فتفرغ منك هذه الجسور درهمًا فأنتبني
 فأقرضك أول مرة وناني مرة وثالث مرة الى عشرة مررات فاذا أنتبني بعد ذلك فلا أرد
 عليك لسلام اشري وتجميع محبتنا ثم ولدك ثم ناو له الشيخ خمسين درهما ما اخذها
 نور الدين واتي بها الى الجارية فقالت له يا بدي روح الى السوق في هذه الساعة وهات
 لنا بعشرين درهما حرا يملون خمسة ألوان وهات لنا بثلاثين درهما خناويز وما كهة
 وشرايا ومشموم فمعه ذلك ذهب نور الدين الى السوق واشترى كل ما طلبته تلك الجارية
 وأتى به اليها فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعاما فاخرا وأتقنته
 غاية الاتقان ثم قدمت له الطعام فاكل وأكتم معه حتى اكتفيا ثم قدمت لمدام وشربت
 هي وياها ولم تزل تسقيه وتؤانسه الى أن سكروا فنامت الجارية معهن وتهاوساعتهما
 وأخرجت من بهجة تهاجرا با من أديم طائف وفحمة وأخرجت منه مسمارين وفعدت
 فعملت شغلها ان فرغ فصار زنا را مليحا فلفته في خرقة بعد صقله وتنظفه وجعلته
 تحت المخذ ثم قامت فتعرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد
 بجانبه صبية كانها فضة نقيه أنعم من الحرير وأطرى من اللب وهو أشهر من علم وأحسن
 من جراتهم خماسه اشد قاعده الهند بمجاوب كاهها قسي السهام وعيون كانها عيون
 غزلان وخذو وكانها شقائق النعمان وبطنها صبية الاعكان وسرة تسع أوقية من
 دهن البن دفعه زبر كانها محذونان محشونان من ريش النعام وبينهما سبي بكل عن
 وصفه اللسان ونسكب عند وصفه العبرات وكان الشاعرة قصدها بهذه الايات
 فمن شعرها ايل ومن فرقها فجر * ومن خدها ورد من ريقها خمر
 ومن وصلها ماوى ومن هجرها لظى * ومن نقرها دروس وجهها بدر
 ﴿وما أحسن تولي بعض الشعراء﴾

يدت قرار ما ست غصن بان * فاحت غيرا ورت غزالا * كان الحزن مشغوف بقلبي

فساعة هجرها يجد الوصلا * لها وجه يفوق على الثريا * ونور جبينها تاق الحللا

﴿وقال بعضهم أيضا﴾

سفرن بدورا وانجلي من أهله * ومن غصونا والتفتن جاذرا

وفين كحللاء العيون لحسنتها * تودا الثريا أن تكون لها ثرى

فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعتها إلى تلك الجارية وضعا إلى صدره ومض شقتها الفوقية بعد أن مض التحية ثم زق اللسان بين الشفتين وقام إليها فوجدها درة ما ثقبت ومطية لغيره ما ركبت فأزال بكارتها ونزل منها الوصال وانعقدت بينهما المحبة بلا انفك ولا انفصال وقابض في خدوها تقيلا كوقع الحصى في الماء ورزا كقطع الرياح في المهرة السعواء لأن نور الدين كان شستا قال اعتناق الحوى ومض الثغور وغمز الحصور وعرض الحسد ودو ضم النهود مع حركات مصرية وغنج بمانية وشهيق حبشية وفتور هندية وغله نوبية ومهضر بقيه وأنير دمياطية وحرارة صعيدية وفترة سكندرية وكانت هذه الجارية جامعة لهذه الخصال مع فرط الجمال والدلال كما قال فيها الشاعر المفضل

هذى التي أنا طول الدهر ناسيا * فلا تفت إلى من ليس يدنيا

كانها المدي في تكوين صورتها * سحار خالقها سبحان باريها

إن كان ذنب عظيم في محبتها * فليس لي توبة يوما أرحتها

قد صيرتني خريسا ساهرا دنفا * والمب قد حار فكري في معانيها

وانشدت بيت شعر ليس يعرفه * الا فتى اغتافى الشعر بر وبها

لا يعرف الشوق الأمن يكابده * ولا الصباية الأمن يمانها

ثم نام نور الدين مع تلك الجارية إلى الصباح في لذة وانشراح لا يسين حلال العناق محكمة الأزار آمنير طوارق الليل والنهار وتبدأ على أحسن حال ولم يخشيان أحد

الوصال ولا كثرة أقبل والقال كما قال فيها الشاعر المفضل

زهرن تحب ودع وقال أحامد * ليس الحسد على الهوى بمساعد

لم يخلق الرحمن أحسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد

متعانقين عليهم ما حلل الرضا * متوسطين بمدهم وبساعد

واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس قسرب في حديد بارد

يا من يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد

واذا صفا لك من زمانك واحد * نعم الصديق وشرب لك الواحد

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح اتقه نور الدين من نومه فرأها أحضرت الماء

فاغتسل هو واباءه وأدى ما عليه من الصلاة ثم أتته بما تبصره المأكول والمشروب
فاكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت الحنطة وأخرجت الزنار الذي صنعت به الليل
وناولته إياه وقالت له يا سيدي خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا الزنار قالت يا سيدي
هو الحري الذي اشتريته البارحة بالعشرين درهما فقم وأذهب به إلى سوق البهيم
وأعطه للدلال ليأدى عليه ولا تبعه إلا بعشرين دينارا سأله ليدك فقال لها نور الدين
يا سيدي الملاح هل شيء بعشرين درهما يباع بعشرين دينارا جهل في ليلة واحدة فقالت
له الجارية يا سيدي أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن اذهب به إلى السوق وأعطه للدلال
فاذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته فمئذ ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى
به إلى سوق الأعمام وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادى عليه وتعد نور الدين على
مصطبة وكان فغاب الدلال عنه ساعة ثم أتى إليه وقال له يا سيدي قم اقض ثمن زنارك
فقد بلغ عشرين دينارا سأله ليدك فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب
واهتز من الطرب وقام لي قبض العشرين دينارا وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض
الدنانير ذهب من ساعته واشترى بها كاهن حرام من سائر الألوان لنعلم له الجارية كله
زنانير ثم رجع إلى البيت وأعطاه الحري وقال لها عليه كاهن زنابير وعلمني أعضا حتى
أعمل معك فاني طول عمري مارأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر مكسبا
منها ط وانها والله أحسن من التحارة بألف مرة فصاحت الجارية به من كلامه وقالت له
يا سيدي نور الدين اسض إلى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفي غدا
أدفعها له من ثمن الزنار مع الخمسين درهما التي اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى
إلى صاحبه العطار وقال له يا عم أقرضني ثلاثين درهما في غدا إن شاء الله تعالى أجيء
لك بالثمانين درهما حجلة واحدة فمئذ لك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فأخذها
نور الدين وأتى به إلى السوق واشترى بها الجواهر ونقلا وفاكهة وشحم وما ومشروبا
كما فعل بالأمس وأتى به إلى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم زنارية فأخذت
اللحم وقامت من وقتها وساعتها وهيأت طعاما فأكروا ووضعت قدام سيدها نور الدين
ثم بعد ذلك هيأت سفره المدام وتقدمت هي وإياه وصارت تملأ وتسقيه وهو عليل
ويسقيها فلما أتب المدام بعقلهما أعجبا أحسن لطافته ورقة معانيه فأنشدت هذين
البيتين
أقول لا هيف حيا بكاس * لها من مسك نكهته ختام
أمر خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من ردام المدام
ولم تزل لك الجارية تتادم نور الدين ويناديهما وتعاطيه الكاس والطاس وتطلب أن علا
لها ويقيها ما تطيب به الانفاس وإذا وضع يده عليها تمنع منه دلا لا وقد زادها السكر

حسناء وانشدت مدين البتين

وهيفاء تهوى الراح قالت لصبا * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها

اذ لم تدر كأس المدام وتسقني * أينك مهجورا تخاف ملالها

ولم يزل كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار على حرى عادتها ولم افرغت من عملها فيه أصلحته وافتت في ورقة ثم نزع ثيابها ونامت بجانبه لي الصبح وكان بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور الدين وقضى شغله وناولته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشر بن دينار كما كنت نظيره بالامس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين دينارا وأتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فعاله معه ودعاه فقال له يا ولدي هل أنت بعت الجارية فقال نور الدين كيف أبيع روحى من حسنى ثم انه حكى له الحكاية من المبتدى الى المنتهى وأخبره بجميع ماجرى له من أوله الى آخره ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذى ما عليه من مزى وقال له والله يا ولدي انك قد فرحتنى وان شاء الله تعالى أنت بخير دائمافانى أولئك الخبير لمحبى لوالدك وبقاء صحبتى معه ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته الى السوق واشترى اللحم الفاكهة والسراب وجميع ما يحتاج اليه على جرى العادة وأتى به الى تلك الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية فى أكل وشرب ولعب وانسراح وودومنادمة مدة سنة وهى تعمل فى كل ليلة زنار فيسعه بعشرين دينارا اينفق منها ما يحتاج اليه الباقي يعطيه لها تحفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد سنة قالت له يا سيدى نور الدين اذا بعت زنار فى غنمى من ثمنه حريرا ملونا سنة ألوان فانه قد خطر ببالى أن امنعك منذ لا تجمع له على كندك ما فرحت بمثل أولاد الجار ولا أولاد المولود الكبار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وباع الزنار واشترى الحرير الملون كما كرت له الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنار به تصنع فى المنديل جمعه كالمه لانهم كما فرغت من زنار فى ليلة تعمل فى المنديل شيئا الى أن خاصته ثم ذولته لمور الدين جعله على كتفه وصار يمسى به فى السوق فصار لتجره واناس وأكابر البلد يقفون عدو صفا ليتفرحوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعته فانفق نور الدين كان نائما ذات ليلة من الليالى بانقبة من منامه فوجد جاريتة تبكى بكاء شديدا وتشد هذه الايات

ذنا فراق الحبيب واقتربا * واحرا بالفسراق واحريا

تفتت مهجتي فوالسنى * على ليل المصت لنا طربا

لابد أن ينظر الحسود لنا * بعين سوء ويلق الأربا

فأعلمنا أن من حسد * ومن عيون الوشاة ولربما

فقال له نور الدين: يا سيدي من مالم تنكبن فقال له أبكي من ألم الفراق فقد أحس قلبي به فقال لها يا سيدة الملاح ومن الذي يفرق بيننا وأنا الآن أحبا الخليلي السيلية وأعشفه لث ففأنت له أن عندي أضعاف ما عندك ولكن حسنا ظن بالليلي يوقع الناس في الأسف وزاد أحسن الشاعر حيث قال

أحسنت ظنك بالأمانه أن حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسأنت لليلاني ما غمرت بها * وعند صفوا الليالي يحدث الكدر

وفي السماء نجوم لأعدادها * وليس بكسف إلا الشمس واقمر

وكم على الأرض من خصر وياسته * وليس برجم إلا ما لا تمسر

أما ترى البحر يعلو فوقه جيف * وتستقر بأقصى قاعه الدرر

ثم قالت يا سيدي نور الدين إذا كنت تفرص على عدم الفراق فخذ حذر من رجل
أفرنجي أعورا مير اليمني أخرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر الوجهه كلّم اللحية لأنه
هو الذي يكون سبب المرامنا وتدرأته أتى في تلك المدينة واطن أنه جاءه الأي طلبي
فقال لها نور الدين يا سيدة الملاح أن وقع بصري عليه فقتلته ومثلت به فقالت له من ميم
يا سيدي لا نقله ولا تكلّمه ولا تبشيره ولا تشاربه ولا تعامله ولا تجالس به ولا تماسه ولا
تحدث معه بلا فقه وإع الله أن يكفيناشره ومكره فلما أصبح الصباح أخذ نور
الدين الزنا وذهب به إلى السوق وجلس على مصطبة كان يتحدث هو وأولئك التجار
فأخذته سنة من النوم فناء على مصطبة الدكان فبدأها هو قائم وإذا بذلك الأفرنجي من
على ذلك السوق في تلك الساعة وهو سبعة من الأفرنجي فرأى نور الدين قائما على مصطبة
الدكان ووجهه مغموف بذلك المنديل وطرفه في يده فقعد الأفرنجي عنده وأخذ طرف
المنديل وقلبه في يده واستمر قلب فيه ساعة فاستحسن به نور الدين فافاق من النوم فرأى
الأفرنجي الذي وصفته الجارية بعينه جالسا عند رأسه فصرخ عليه نور الدين صرخة
عظيمة رعبته فقال الأفرنجي لأى شئ تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيئا فقال له
نور الدين والله يا ملعون لو كنت أخذت مني شيئا لكنت قد دعت بك إلى وإلى فقال له
الأفرنجي يا ماسجحت دينك وما تعتقده أن تخبرني من أين لك هذا المنديل فقال نور
الدين هو شغل والدتي عملته لي بيدها فقال له الأفرنجي أتبعه وتأخذ منه مني فقال
له نور الدين والله ملعون لا أسمع لك ولا أفكرك فانها ما عملته إلا على اسمي ولم تعمل
غيره فقال به لي رأنا أعطيتك منه في هذه الساعة خمسمائة دينار ودع إلى عملته تعمل

لكثرة أحسن منه فقال له نور الدين أنا ما أبيع أبدا لأنه لا نظير له في هذه المدينة
 فقال له الأفرنجي ياسيدي وهل لأتبعه يستماته دينار من الذهب الخالص ولم يزل
 يزيده مائة بعد مائة إلى أن أوصله إلى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على بغيره أنا
 ما أبيع ولا بأني دينار ولا بأكثر أبدا ولم يزل ذلك الأفرنجي يرغب نور الدين بالمال في
 ذلك المنديل إلى أن أوصله إلى ألف دينار فقال له جماعة من أئمة التجار الحاضرين نحن
 بعناك هذا المنديل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أبيع والله فقل له تاجر من أئمة
 أعلم يا وادي أن هذا المنديل قيمته مائة دينار أن كثر ووحده راغب وأن هذا
 لأفرنجي دفع فيه ألف دينار حلة فربحك تسعمائة دينار فأى حج تريد أكرمن هذا
 الرجل قال أي عندي أنك تباع هذا المنديل وتأخذ ألف دينار وتقر للذي علمته
 تعمل أشعره وأحسن منه وأرج أنت الأقدية من هذا لأفرنجي المأمون عدو
 الدين ماسقني نور الدين من التماس وباع للأفرنجي المنديل بألف دينار ودفع له
 الثمن في الحضرة وأراد نور الدين أن يصرف ويعطي إلى حاجته ثم يبشرها
 بما كان من أمر الأفرنجي فقال الأفرنجي يا جماعة ما لتجار عجزو نور الدين فأنكم
 وإياه سيوف في هذه الليلة فان عندي بنية خروجه من معني الخمر وخروجه من
 فأكفه وقتلا ومهموما فأنتم تؤانسوني في هذه الليلة ولا يتأخر أحد منكم فقال
 التجار ياسيدي نور الدين نشتهي أن تكون معنا في مثل هذه الليلة فنحدث
 معك في فضلك وأحسنك أن تكون معنا ونحن وإياك ضيوف عنده. فذا
 الأفرنجي لأنه رحل كريم ثم أنهم حلفوا عليه لطلاق ومنعوه بالصعب عن الراح
 إلى بيته ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين وأخذوا معه نور الدين
 وذهبوا مع الأفرنجي إلى قاعة مطيبة بليونين ما جلوسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة
 غربية اصنع بدعة العمل فيها صوره كاسر وكسور وعاش وممشوق ومائل
 ومسؤول ثم وضع للأفرنجي على تلك السفرة الأولى النقيصة من الصيني والبلور
 وكاه مملوءة بعشش النخل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم الأفرنجي بنية مملوءة من
 الخمر رعى المعلق وأمر بفتح خروفي سمين ثم أن الأفرنجي أودع النار وصار يشوي
 من ذبائح اللحم وطعم التجار ويستقيم من ذلك الخمر ويغمزهم على نور الدين أن
 ينزلوا عليه بالشراب فلم يزلوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده فلما راه الأفرنجي
 مستغافرا لسكره قال أنتنا ياسيدي نور الدين في هذه الليلة فرجابك ثم رجابك
 وصار الأفرنجي يؤانس به بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه وسارقه في الحديث
 ساعة زمنية ثم قال له ياسيدي نور الدين هل تبغني جاريتك التي اشتريتها بحضرة هؤلاء

التجار بالف دينار من مدة سنة وأنا أعطيتك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار بزيادة
أربعة آلاف فاني نور الدين ولم يزل ذلك الا فرنجي يطعمه ويسقيه ويرغبه في المال
حتى أوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور الدين وهو في سكره قدام
التجار بعثك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح الا فرنجي بذلك القول فرحا
شديدا وأشهد عليه التجار و باتوا في أكل وشرب وانسراح الى أن أصبح الصباح
فصاح الا فرنجي على غلمانه وقال لهم ائتوني بالمال فاحضر والمال فعد لنور الدين
العشرة آلاف دينار نقد او قال له يا سيدي نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريته
التي بعثها الى البلية بحضرة هؤلاء التجار المسلمين فقال نور الدين يا ملعون أنا ما بعثك
شيأ وأنت تكذب علي وليس عندي جوار فقال له الا فرنجي قد بعثني جاريته
وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع فقال التجار كلهم نعم يا نور الدين أنت بعته
جاريته قد اصابنا ونحن نشهد عليك انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار ثم قابض
الثمن وسلمه الجارية والله يعوضك خيرا منها أتكره يا نور الدين انك اشتريت جارية
بالف دينار ولك سنة تتمتع بحسنها وجمالها وتلد في كل يوم وليلة بمناجعتها وصالحها
وبعد ذلك رجحت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصل وفي كل يوم
تعمل لك زنا راتبه بعشرين دينارا وبعد ذلك كله تنكر البيع وتستقل الرج أي
رجأ أكثر من هذا الرج وأي مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تصها فها أنت
قد شبعت منه في هذه المدة قابض الثمن واشترى غيرها أحسن منها أو نز وجلت
بقتان بناتنا بهر أنل من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجمل منها أو يصير
معلك باقي المال رأس مال في يدك ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة
والمخادعة أي أن قبض العشرة آلاف دينار ثمن الجارية وأحضر الا فرنجي معه وقته
وساعته الماضية والشهود فكتبوا له حجة بشرع الجارية التي اسمها مريم الزرية
من نور الدين هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر مريم الزرية
فانها بعدت تنتظر سيدها نور الدين جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى
العشاء ومن العشاء الى نصف الليل فلم بعد اليها سيدها المذكور فجزعت وصارت
تبكي بكاء شديدا فسمعها الشيخ العطار وهي تبكي فارسل اليها زوجها فدخلت عليها
فقرأت ما تبكي فبالت لها يا سيدي ما لك تبكين فقالت يا أمي اني قد عدت أنتظر محبي
سيدي نور لدين فما جاء الى هذا الوقت وأنا خائفة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من
شأن لا حل أن يعنى فدخلت عليه الحيلة وباعنى فقالت لها زوجة العار يا سيدي
محمدا لو أعطوك سيديك فيك ملء هذه القاعة ذهباً ليعلم لما أعرفه من محبته لك

ولكن يا سيدتي مريم ربما يكون جماعة أو من مدينة مصر من عند والده فعمل لهم عز ومن في المحل الذي هم نازلون فيه واستحي أن يأتي بهم إلى هذا المحل لأنه لا يسمعهم أو لأن من تنتم أقل من أن يحييهم إلى البيت أو أحب أن يخفي أمره عنهم فبات عندهم إلى الصباح وبأني أن شاء الله تعالى أملك في غد بحجر فلا تحملي نفسك هما ولا تخافي هذا سبب غيابه عنك في هذه الليلة وهذا أنا أبيت عندك وأسلب إلى أن يأتي إليك سيدك ثم إن زوجة العطار صارت تلاطف مريم وتسا ابالكلام إلى أن ذهب الليل كله فلما أصبح أصبح ندرت مريم إلى سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الأفرنجي - ثرواء وجماعة التجار حواله فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد كأنها سقينة في وسط بحر فلما رأتها المرأة العطار قالت لها يا سيدتي مريم مالي أراك قد تغير حالك واصفر وجهك فقالت لها الجارية يا سيدتي والله إن قاي قد أحس بالفراق وبسد التلاق ثم إن الجارية تأوحت بنصاعد الزفات وأنشدت هذه الأبيات

لا تركن إلى الفراق * فانه من المسداق * الشمس عند غروبها
تصفرن ألم الفراق * وكذلك عند شروقها * تبيض من فرح التلاق
ثم إن مريم الزارية بأت الكاء الشديد الذي ما عليه من مريد وتيقنت الفراق وقالت لزوجها العطار يا سيدتي أما قلت لك أن سيدتي نور الدين قد عملت عليه حيلة من أجل بيبي فأشك في أنه يلعب في هذه الليلة لهذا الأفرنجي وقد كنت حذرتك منه ولكن لا ينفع حذر من ندر فقد بان لك صدق قول فيينما هي وزوجة العطار في الكلام وإذا بسيد نور الدين قد دخل عليها في تلك الساعة فنظرت إليه الجارية فرأته قد تغير لونه ونشوش ذهنه ولاح على وجهه أثر الحزن والندم فقالت يا سيدتي نور الدين - هل قد فداك ما بالك وما الذي تغير منه - لك كانك بعثني فيبك بكاء شديدا وتأوه وتنفس الصعداء وأنشد هذه الأبيات

هي المقادير خاتمي الحذر * إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر
إذا أراد الله أمرا باهرى * وكان ذاع قبل وسمع وبصر
أسم أذنبه وأعشى عينه * وسل منه عقله سل الشعر
حتى إذا أنقذه حكمة * رد إليه عقله ليعتبر
لا تغفل فيما جرى كيف جرى * كل شيء بقضاء وقدر
ثم إن نور الدين اعتذر إلى الجارية وقال لها والله يا سيدتي مريم انه قد جرى القلم بما قدر الله وحكموا به قد علموا على حيلة من أجل بيبي فعملت على الحيلة فبعثك وقد

فرطت فيك أعظم تغريب ولكن عسى من حكم الفراق أن عن بالذلاق فقات له قد
حذر تلك من هذا وكان في وهمي ثم ضمتها صدرها وقبلته بين عينيه وأنشدت
هذه الأبيات

وحي هواكم ماسلوت وداكم * ولو تلقت روجي هوى وتشوقا

أنوح وأبكي كل يوم وليلة * كمناح قري عسلى شجر المنقا

تغص عيشي بعدكم يا أحبتي * متى غيبت عني فإلى ملتي

فبينما هما على هذه الحالة يتنشدان الأشعار ويسكبان الدموع الغزار وإذا بالافرنجي
قد طلع عليهما وتقدم ليقبل يدي السيدة مريم فطعمته بكفه على خده وقالت له أبعده
بأمله من فازلت خلقي حتى خدعت سيدى ولكن يا عدو الله ان شاء الله تعالى لا يكون
الاخبر او ارمي كيدك في نحرى فضحك الافرنجي من قولها وتجب من فعلها واعتذر
اليها وقال لها يا سيدتى يم أى شئ ذنبى أنا وانما سيدك نور الدين هذا والذى
يا عبد برضا نفسه وطيب خاطره وانه وحي المسج لو كان يحجب ما فرط فيك ولولا أنه
فرغ عرضه منك ما باعد وقد قال بعض الشعراء

من ملنى قليض عني عامدا * ان عدت أذكره فليست براشد

ما ضللت الدنيا على بأسرها * حتى ترفى راعيا فى زاهد

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك أفرنجة وهي مدينة واسعة الجادات كثيرة الصنائع
والترائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان نمرود ملك الجارية من
مدينة أيم صاحب غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى يطرب منه السامع
ويطيب وذللتها تربت عندها أيم أو أمها فى العز والدلال والانس والكمال وعلقت
انفصاحها والكتابة والحساب والغروسة والشجاعة وبالمهمات الصنائع مثل
الركشة والخياطة وصناعة الزنابير والعقادة ورمى الذهب على الفضة وغير ذلك
وأنتقت صنائع الرجال والنساء حتى صارت ماهرة فى كل صناعة تصارفة فريدة فى
عصره ووحيدة فى دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من الحسن والجمل والظرف
الذى لم يوجد مثله فى نساء ولا رجال فطعمها ملوك الجزائر مر أيمها وكل من خطبها منه
يا بى أن يزوجهاله لانه كان يحبها حباشديد لولا انه قد عصى فرأى ساعة واحدة ولم يكن
عنده بنت غيرها وكان معه من الأولاد الذكور كثير ولكنه كان مشغوا بالحب أكثر
منهم فاتفق انها مرضت فى بعض السنين مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك فندرت
على نفسها أنها اذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير القلاى الذى فى الجزيرة القلانية
وكان ذلك الدير معظما عندهم وينفرون له الذور ويتبركون به فلما عوفيت مريم من

مرضاها أرادت أن توفي بذرها الذي نذرتة على نفسها ذلك الدبر فأرسلها ملك أفرنجية
إلى ذلك الدبر في مركب صغيرة وأرسل معها بعضا من بنات أكابر المدينة ومن
البطارقة لأجل خدمتها فلما قربت من الدبر صادفها مركب من مراكب المسلمين
الجهادين في سبيل الله فأخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات
والأموال والتحف فباعوا ما أخذوه في مدينته القبر وان فوقعت مريم في يد رجل
أعجمي تابع من التجار وقد كان ذلك الأعجمي عينا لآيات النساء ولم تنكشف له عورة
على أمر أم فجعلها للخدمة ثم إن ذلك الأعجمي مرض مرضا شديدا حتى أشرف على
الهلاك وطال عليه المرض مدة شهور فخدمته مريم وبالق في خدمته إلى أن عافاه الله
من مرضه فتذكر ذلك الأعجمي منها الشفقة والحمية عليه والقيام بخدمته فأراد أن
يكاثرها على ما فعلته معه من الجليل فقال لها غني على يامريم فقالت يا سيدي غنيت عليك
أن لا تبعني إلا لن أريده وأحب فقال لها نعم لك على ذلك والله يا مريم ما أبيعك إلا لن
تريدينه وقد جعلت يبعك بيدك ففرحت فرح شديدا وكان الأعجمي قد عرض عليها
الاسلام فاسلمت وعلماها العبادات فتعلمت من ذلك الأعجمي في تلك المدة أمر دينها وما
يجب عليها وحفظها القرآن وما يسر من العلوم الفقهية والأحاديث النبوية فلما دخل
بها مدينته أسكنه بيتا عظاما أرادته وجعل يبعها بيدها كما ذكرنا فأخذها على نور
الدين كما أخبرنا هذا ما كان من سبب خروجهما من بلادها (وأما) ما كان من أمر
أيها الملك أفرنجية فانه لما بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه القيامة وأرسل خلفها
المراكب ومحبتيهم البطارقة والفرسان والرجال والشجعان فلم يقعو لها على خبر بعد
التفتيش في جزائر المسلمين ورجعوا إلى أيها بالويل والثبور وعظائم الأمور فحزن عليها
أبوها خزن أشد فبادر فأرسل خلفها ذلك الأعور اليميني الأعرج الشمال لانه كان أعظم
وزرائه وكان جبارا عنيدا لا يحيل وخداع وأمره أن يقتل عليها في جميع بلاد المسلمين
ويشترها ولو بعل ومركب ذهب ففتش عليها في ذلك الملعون في جزائر البحار وغالب
المدن فلم يقع لها على خبر إلى أن وصل إلى مدينته أسكنه ربه وسأل عنها فوقع على
خبرها عند نور الدين على المصري فخرى له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها
منه كاذكرنا بعد الاستدلال عليها بالتمثيل الذي لا يحسن صنعه غيرها وكان قد قدمي
التجار واتفق معهم على خلاصتها بالحيلة فلما صارت عنده مكثت في بكاء وعويل
وحزن طويل فقال لها يا سيدي في مريم خلى عنك هذا الحزن والبكاء وقوى معي إلى
مدينته أهلك وعمل ملكتك ونزل عزك ووطنك لتكوفي بين خدمك وغلمانك

وحشمك واتركى هذا الذل وهذه الغربة ويكفى ما قد حصل لى من التعب والسفر
من أجلك وصرف الاموال فان لى فى السفر والتعب وصرف الاموال نحو ستة ونصف
وقد امرنى والدك أن اشترى لك ولولعل عى كى ذهباً ثم ان ذلك الوز ير صار يقبل
قدمى او يتخضع لها ولم يزل يكررت قبيل يديها وقد ميا وهى تزداد فى الغضب عليه وهو
مع ذلك منقاد اليها ويفعل ذلك كله أدباً معها واحتراماً لسانها وقد قالت لى ما لمعون
ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما فى مرادك ثم قدم اليها الغلمان فى تلك الساعة بغلة
بسرج من ركش واركبوها عليها ورفعوا فوق رأسها صحابة من حويرة من ذهب
وفضة وصاروا فرج يمشون حولها حتى طلوعها من باب البحر وانزلوها فى قارب
صغير وصاروا يقفون بها الى أن أوصلوها الى المركب الكبيرة وانزلوها فيها فعند ذلك
نهض الوزير الاعداء وقال لبحرية المركب ارفعوا الصارى فرفعوه من وقتهم ونشروا
القلوع والاعلام وسافرت بهم تلك المركب هذا كله ومريم تنظر الى ناحية اسكندرية
حتى غابت عن عينها فصارت تبكى فى سرها بكاء شديداً وقد سكبت العبرات وأنشدت
هذه الايات

أيام منزل الاحباب هل لك عودة * البنا وما على بما الله صانع
فسارت بناسفن الفراق وأمرعت * وطرفى قرع يدحمته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدى * به يشتقى سقى وقعى المواجه
ألا يا الهى كن عليه خليفتى * فعندك حقاً لا تنسيع الودائع
ولم تنزل مريم كلمات ذكرته تبكى وتوح فأقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل منهم
كلاماً بل شغلها داعى الوجد والغرام وزاد بها الحبيب والهيام فاشتدت بها الحسرات
وأنشدت هذه الايات

لسان الهوى فى مهجتي لك ناطق * يخبر عني أنني لك عاشق
ولى كبد جمر الهوى قد أذابها * وقلبي جريح من فراقك خافق
وكم أكنتم الحب الذى قد أذابنى * خففنى قرع والدعوى سوابق
ولم تنزل مريم على هذه الحسالة لا يقر لها قرار ولا يطاق معها اصطبار مدمه سفرها هذا
ما كان من أمرها هى والوزير الاعداء (وأما) ما كان من أمر نور الدين على المصرى
فانه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار ولا يجده
عن فراقها اصطبار فتوجه الى القاعة التى كان مقيماً بها هو ومريم فرأها فى وجهه
سوداء مظلمة ورأى العدة التى كانت تشتغل عليها الزناير وثيابها التى كانت على
جسدها فضمها الى صدره وبكى وأن لفراق حبيبته واشتكى وفاضت من حلقه

العبوات وأنشد هذه الايات

ترى هل يعود الشمل بعد تشتتي * وبعد توالي حسرتي وتلفتي
 فهيات ما قد كان ليس براجع * فياهل ترى أحظي بوصل حبيتي
 وياهل ترى قدي جمع الله شملنا * وتذكر أحبابي عهد مودتي
 ويحفظ ودي من بجهلي أضعته * ويربي عهودي ثم صالف محبتي
 فما أنا الامت بعد بعدهم * وهل ترضى الاحباب يوما منيتي
 فيا أسفي ان كان يجدي تأسف * لقد ذبت وجدنا من تزايد حسرتي
 وضاع زمان كان فيه توأصلي * فياهل ترى دهرى يجود بميتي
 فيا قلب زد وجد او يا عين ادمي * دموعا ولا تبقي الدموع بمقلتي
 ويا بعد أحبابي وفقد نصيري * لقد قل انصاري وزادت بليتي
 سألت الله العالمين يجودني * بمود حبيبي والوصال كعادتي
 ثم ان نور الدين بكى البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد ونظير الى زوايا القاعة
 وأنشد هذين البيتين

أرى أنا رهم فأموت شوقا * وأسكب في مواطنهم دموعي
 وأسأل من قضى بالبعد عنهم * بمن علي يوما بالرجوع
 ثم ان نور الدين نهض من وقته وساعته وقف باب الدار وخرج يجرى الى البحر وصار
 يتأمل في موضع المركب التي سافرت بعريم فبكى وصعد الزفرات وأنشد هذه الايات
 سلام عليكم ليس لي عنكم غنا * واني على الحالين في القرب والبعد
 أحر اليهم كل وقت وساعة * واشتاقكم شوق العطاش على الورد
 وعندكم معي ولي وناطري * وتذكر كم عندي الزمن الشهد
 فيا أسفي لما استقلت ركابكم * وجدت بكم تلك السفينة عن قصد
 ثم ان نور الدين ناح وبكى وأن وحن واشتكى ونادى يا مريم يا مريم هل كانت رؤيتي
 لك في المنام أم أضغاث أحلام ولما زاد به الحزن والحسرات أنشد هذه الايات
 فهل بعد هذا البعد عيتي تراكم * واسمع من قسرب الديار نداكم
 وتحممنا الدار التي آنت بنا * وأعطي مني قلبي وانتم منا كم
 خذوا لعلنا أبين مررت محفة * وأبن حلالتم فادفوني حذاكم
 فلو كان لي قلبان عشت بواحد * وأترك قلبا مغرما في هواكم
 ولو قيل لي ماذا على الله تشتهي * لقلت رضا الرحمن ثم رضاكم
 فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكي ويقول يا مريم واذا بشيخ قد طلع من مركب

وأقبل عليه فرآه يبكي وينوح وينشد هذين البيتين
يا مريم احسن عودي ان لي مقلا * صائب المزن تجري من سواكها
واسخري عزلي دون الانام ترى * أحفان عيني غرقى في كواكها
فقال له الشيخ يا ولدي كانت تبكي على الجارية التي سافرت البارحة مع الافرنجي
فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خرم غشا عليه ساعة زمانية ثم أفاق وبكى البكاء
الشديد الذي ماعليه مزيد وأنشد هذه الايات

فهل بعد هذا البعد جرحي وساها * ولذة أنعي قد يعود كماها
فان بغلبي لوعة وصباية * ويزعجني قيل الوشاء وقاها
أقسيم نهاري باهتا مخميرا * وفي الليل أرجوا أن يزور خياها
فوانه لا أسلو عن العشق ساعة * وكيف ونفسي في الوشاء ملاها
منعمة لاطراف مهضومة الحشا * لها مقسلة في القلب مني نباها
يحاكى نضيب البان في الروض قدما * ويحجل ضوء الشمس حسنا جامها
ولولا خاف الله جل جلاله * لقلت لذات الحسن جل جلالها
فلما نظر ذلك الشيخ الى على نور الدين ورأى جماله وقده واعتداله وفصاحة لسانه
واطفاً اقتبانه حزن قلبه عليه ورق لحاله وكان ذلك الشيخ رئيس حركب مسافرة الى
مدينة تلك الجارية وفيها زيادة عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر يا ولدي ولا
تري الا خيرا ان شاء الله تعالى أو صلك اليها فقل له نور الدين متى السفر يا سيدي فقال
الرئيس يدبقي لثلاثة أيام ونسافر في خير وسلامة فلما سمع نور الدين كلام الرئيس
فرح فرحاً شديداً وشكر فضله واحسانه وبعد ذلك تذكر أيام الوصال واجتماع الشمل
بجاريته ذات الحسن والجمال فبكى بكاء شديداً وأنشد هذه الايات

فهل يجمع الرحمن لي ولىكم شهلا * وهل أبلغ المقصود يا سادق أملا
رسد دهرى اندهر منكم نزوة * وأطبق أحفاني على ذاتكم بحلا
وليان وعلمكم يباع اشتريته * بروحى ولكن أرى وصلكم أغلى
ثم أن نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق وأخدمه جميع ما يحتاج اليه
من الزاد وأدوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له يا ولدي ما هذا الذي
معلك قال زوادي وما احتاج اليه في السفر فتحلل الرئيس من كلامه وقال له يا ولدي
هل أنت رائع تنفر جعلى عمود السوارى ان يبينك وبين مقصدك مسيرة شهرين
اذا طاب الربح صفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيئاً من الدراهم
وطلع الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه في السفر على قدر كفايته وماله بنية

ماء حلوث ثم أقام نور الدين في المركب ثلاثة أيام الى أن تجهز التجار وتضام مصالحهم ونزلوا في المركب ثم حل الرئيس قلوبها وساروا مدة أحد وخمسين يوما وبعد ذلك خرج على القرصان تطلع الطريق فنهبوا المركب وأسر واجبرهم من فيها وأتوا بهم الى مدينة أفرنجية وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جلتهم فأمر الملك بحبسهم وفي وقت تزولهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب الذي فيه الملكة مريم الزارية مع الوزير الأعور فلما وصل الغراب الى المدينة طلع الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزارية سالمة فلقوا بالبشر وزيّنوا المدينة بأحسن زينة وركب الملك في جميع عسكره دار باب دولته وتوجهوا الى البحر ليقابلوها فلما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فعاثقها وسلم عليها وقدم لها جوادا فركبته فله اوصلت الى القصر فالتفتا أسماها وعانقتا وسلمت عليها وسألتا عن حالها وهل هي بكر مثل ما كانت عندهم سابقا أو عارت امرأه ثيبا فقالت لها مريم يا أمي بعد أن باع الإنسان في بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر ويصير محكوما عليه كيف تبقى بنت بكر ان الذاهر الذي اشترا في هددني بالضرب وأكرهني فأزال بكارتني داعني لآخر وأخر باعني لآخر فلما سمعت أمها هذا الكلام صارا الضياء في وجهها كالأفلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فعصبت ذلك عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته فقالوا له أيم الملك انها تنجست من المسلمين وما يطهرها الا ضرب مائة رقبة من المسلمين فعند ذلك أمر الملك باحصار الاسارى الذين في الحبس فاحضر وهم جميعا بين يديه ومن جلتهم نور الدين فأمر الملك بضرب رقابهم فأول من ضرب رقبة رئيس المركب ثم ضربوا رقبة التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نور الدين فشرطوا ذيله عصبوا عينيه ودمموه الى نفع الدم وأرادوا أن يضربوا رقبة واذا بامرأته فجاءت على الملك في تلك الساعة وقالت له يا مولاي أنت كنت تذر لك كنيسة خمسة اسارى من المسلمين ان رد الله بنتك مريم لاجل أن يساعدونا في خدمتها والآن قد وصلت اليك بنتك السيدة مريم فاوف بنذر الذي تذرته فقال لها الملك يا أمي وحق المسيح والذين الصبيح لم يبق عندي من الاسارى غير هذا الاسير الذي يريدون قتله فخذيه معك يساعدك في خدمة الكنيسة الى أن يأتي الينا اسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة آخر ولو كنت سبقت قبيل أن يضربوا رقاب هؤلاء الاسارى لاعطيتك كل ما تريد به فشكرت الجوز صنيع الملك ودعت له بدوام العز والبقاء والتمن ثم تقدمت الجوز من وقتها وساعتها الى نور الدين وأخرجته من نفع الدم ونظرت اليه فرائته شابا لطيفا نظير بقا رقيق البشرة ووجهه كأنه البدر اذا بدر في ليلة بعة عسرا فأخذته

ومضت به الى الكنيسة وقالت له يا ولدي اقلع ثيابك التي عليك فانها لا تصلح الا للخدمة
السلطان ثم ان الجحوز جاءت لنور الدين ببيعة من صوف أسود ومثزم من صوف أسود
وسير عريض فالبيسة تلك الحبيبة وذلك المثزم وشدت وسطه بالسير وأمرته أن يخدم
الكنيسة فتخدم الكنيسة مدة سبعة أيام فيبها هو كذلك واذا بذلك الجحوز قد أقبلت
عليه وقالت له يا مسلم خذ ثيابك الحرير والسبا وخذ هذه العشرة دراهم واخرج في
هذه الساعة لتتفرج في هذا اليوم ولا تقف هنا ساعة واحدة لتلا تروح وحك
فقال لها نور الدين يا أمي أي شيء الخبر فقالت له الجحوز اعلم يا ولدي أن بنت الملك
السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة في هذا الوقت لاجل أن تزورها
وتبصر بها وتقر بالحاقر فانا حلاوة السلامة بسبب خلاصها من المسلمين وتوفى لها
الندو راقي نذرتهان فبهاها المسيح ومعها أربع مائة بنت ما واحدة منهن الا كاملة في
الحسن والجمال ومن جلتهن بنت الوزير وبنت الامراء وأرباب الدولة وفي هذه
الساعة يحضرون ويرمي بغير نظرهن عليك في هذه الكنيسة فيقتلنك فعند ذلك أخذ
نور الدين من الجحوز العشرة دراهم بعد أن لبس ثيابه وخرج الى السوق وصار يتفرج
في شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأوابها ثم رجع الى الكنيسة فرأى مريم الزنارية
بفت الملك قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربع مائة بنت نهذا بكار كاهن الاقارو من
جلتهن بنت الوزير والاعور وبنت الامراء وأرباب الدولة وهي تمتلئ بينهن كانها
القمر بين النجوم فلما راها نور الدين لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال
يا مريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادي يا مريم هجمن عليه وجر دن
بيض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله في تلك الساعة فالتفتت اليه مريم وتأملت
فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات اتركن هذا الشاب فانه مجنون بلاش لان علامة
الجنون لانه على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف
رأسه وخلق عينه وأشاح بيديه وعوج رجله وأخرج الزبد من فيه وشذيقه فقالت
السيدة مريم أما قلت لكن ان هذا المجنون احضرته عندي وابعدن عنه حتى اسمع
ما يقول فاني اعرف كلام العرب وانظر حاله وهل داء جنونه يقبل المسداواة ام لا فعند
ذلك جملة البنات وجدتن به بين يديهما ثم أبعدن عنه فقالت له هل جئت الى هنا من
أجل وخطرت بنفسك وعملت نفسك مجنوناً فقال لها نور الدين يا سيدتي أما سمعت

قول الشاعر

قالوا جنتت بمن تهوى فقلت لهم * مالذة العيش الا للجانين
هاؤا جنوني وهاؤا من جنتت به * فان وفاي مجنون في لآلئوموني

فقال له مريم والله يا نور الدين انك الجاني على نفسك فاني حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولي وتبعته هوى نفسك واناما ما اخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرقيا في المنام وانما هو من باب المشاهدة والعيان لاني رأيت الوزير الاعور فعرفت أنه ما دخل في هذه انبادة الا في طلبي فقال لها نور الدين يا سيدي مريم فعوذ بالله من زلة العاقل ثم تزايد بنور الدين الحال فانشد هذا المقال

هو اجانية من زلت به القدم * قد يشمل العبد من ساداته كرم
حسب المسمى بذنب من جناته * فرط الندامة اذ لا ينفع الندم
فقلت ما يقتضي التأديب معترفا * فان ما يقتضيه العفو والكرم
ولم يزل نور الدين هو والملكة مريم الزنارية في عتاب يطول شرحه وكل منهما يحكي
لصاحبه ما جرى له ويتناشدان الاشعار ودموعهما تجري على خدودهما شبه الانهار
ويتشكيان لبعضهما شدة الهوى وأليم الوجد والجوى الى أن لم يبق لاحدهما قوة على
الكلام وقد ولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة مريم حلة حضراء مزر كشة
بالذهب الاحمر مرسعة بالدر والجوهر فزاد بها حسننها وظرف معانيها وقد أجاد من
قال فيها

تبدت كبدر اللم في الحلل الخضر * مفككة الازرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التي * كويت قلوب العاشقين على الجمر
أنا الفضة البيضاء والذهب الذي * يفلح به الماسور من شدة الأسر
فقلت لها ان الصدود أذابني * فقلت أتشكولي وقلبي من صخر
فقلت لها ان كان قلبك صخرة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر
فلما حن الليل اقبلت الملكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقلن لها
قد أغلقناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن الى مكان يقال له مكان
السيدة مريم العذراء أم النور لان النصاري يزعمون ان روحانياتها وصرها في ذلك
المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن في الكنيسة كلها ولما فرغن من زيارتها
التفتت السيدة مريم اليهن وقالت لهن اني أريد أن أدخل وحدي في هذه الكنيسة
وأترك بهافاته حصل لي اشتياق اليها بسبب طول غيبيتي في بلاد المسلمين وأما أنتن
فحيث فرغتن من الزيارة فتمن حيث شئتن فقلن لها حيا وكرامة افعلي أنت ما تريدينه
ثم انهن تفرقن عنها في الكنيسة وغن فعند ذلك استغفلتهن مريم وقامت تفتش على

نور الدين فرأته في ناحية بالساعي على مقال الجمر وهو في انتظارها فلما أقبلت عليه قام لها على قدميه وقبل يديها فجلست وأجلسته إلى جانبها ثم ترغت ما كان عليها من الحل والحلل وضمت نور الدين إلى صدرها وجعلته في حضنها ولم تنزل هي وإياه في تقبيل وعناق ونعمات خاق باق وهما يقولان ما أنصر ليل التلاق وما أطول يوم الفراق وينشدان قول الشاعر

يا ليلة الوصل وبكر الدهر * لانت غمرة الليالي الفجر
جفا تنى بالصبح وقت العصر * هل كنت كخلاف عيون الفجر

أو كنت نوما في عيون الرمد

ليسه الوصال ما أطولها * آخرها مواصل أولها
كحلفة مفرغة ما نلها * من طرف والحشر أيضا قبلها

فأصيب بعد البعث ميت الصد

فبينما هما في هذه اللذة العذبية والفرحة العقيمة وإذا بعلام من القلمان النفيسة يضرب الناقوس فوق سطح الكنيسة ليقم من عبادتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر
رأيت يه يضرب الناقوس قلت له * من علم الطسبي ضرب بالنواقيس
قلت للنفس أي الضرب يؤمك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيسي
فلما سمعت مريم ضرب الناقوس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحلبها فشق قلبه على نور الدين وتكدر قلبه الحزين وسكب العبرات وأنشد هذه الآيات

لا زلت أتم ورد خد غص * وأعد ذلك مبالغافي العض
حتى إذا طبتنا ونام رقيمتنا * وعيوننا مالت لتحو الغمض
ضربت فواقيس تشبه أهلها * بمؤذن يدعو صلاة الفرض
قامت على عجل للبس ثيابها * من خوف نجم رقيمتنا المنقض
وتقول يا سؤلى ويا كل المنى * جاء الصبح بوجهه المبيض
أقسمت لو أعطيت ملك ولاية * وبقيت سلطانا شديدا القبض
لهدمت أركان الكنائس كلها * وقتلت كل مقس في الأرض

ثم إن السيدة مريم ضمت نور الدين إلى صدرها وقبلت خده وقالت له يا نور الدين كم يوم لك في هذه المدينة فقال سبعة أيام فقالت له هل سرت في هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارزها وبنائها التي من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل تعرف طريق صندوق النذر الذي في الكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف ذلك كله إذا كانت الليلة

الغاية ومضى ثلث الليل الاول فاذهب في تلك الساعة الى صندوق النذر وخدمته
ما تر يده وتشتهيه وافتح باب الكنيسة الذي فيه الخوخة التي توصل الى البحر فانك
تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية في رأس الرئيس عديده اليك فناوله يدك
فانه يطلعك في السفينة فاقعد عنده حتى آجي اليك والحذر ثم الحذر من أن يلحقك
النوم في تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين
وخرجت من عنده في ذلك الوقت والحسين ونبت حواريا وسائر البنات من نومهن
وأخفتن وأتت الى باب الكنيسة ودقته ففتحت الجوز الباب فلما طلعت منه رأت
الخدم والحشم والبطارقة وقوا فقدموا لها بغلة فركبتها وأرخوا عليها ناموسية من
الحسبر وأخذت البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بها الجاويشية
وبأيديهم السيوف مسلولة وتوجهوا بها الى أن وصلوا الى قصر أبيها هذا ما كان من
أمرها وأما ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل محتفيا وراء الستارة التي كان
مستترا خلفها هو ومريم الى أن طلعت الشمس ودخل الناس في الكنيسة وكثروا فيها
فاختلط بالناس وجاء الى تلك الجوز قيمة الكنيسة فقالت له أين كنت راقدا في هذه
الليلة قال في محل داخل المدينة كما أمرتني فقالت له الجوز نزع ما فعلت ولو كنت بت
الليلة في الكنيسة لكانوا قتلوك أقبح قتله فقال لها نور الدين الحمد لله الذي نجاني من
شر هذه الليلة ولم يزل نور الدين يقضي شغله في الكنيسة الى أن مضى النهار وأقبل
الليل بدايحي الاعتكار فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخدمته ما خدمه
وغلأ عنه من الجواهر ثم صبر الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة
التي توصل الى البحر وهو يطلب السر من الله ولم يزل عني الى أن وصل الى الباب
وفتحه وخرج من تلك الخوخة وذهب الى البحر فوجد السفينة راسية على شاطئ
البحر بجوار الساب ووجد الرئيس شيخا كبيرا ظريفا لا ان لحيت طويلا وهو
واقف في وسطها على رجله والعشرة رجل واقفون قد أمه فناوله نور الدين يده ثم
أمرته مريم فاخذه من يده وجذبه من البحر فصار في وسط السفينة فعمد ذلك صاح
الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم اقلعوا مرساة السفينة من البر وعومروا بنا قبل ان
يطلع المار فقالوا واحدهم العشرة البحرية ياسيدي الرئيس كيف نعومر والمالك أخبرنا
أنه في غد يركب السفينة في هذا البحر ليطلع على ما فيه لانه خائف على ابنته مريم من
سراق المسلمين فصاح عليهم الرئيس وقال ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم أنكم
تخالفونني وتردون كلامي ثم ان الرئيس سل سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على

عقته فخرج السيف بلع منه فقال له واحد وأي ذنب عمل صاحبنا حتى تضرب رقبتك
فدبده إلى السيف وضرب به عنق هذا المذنب ولم يزل ذلك الرئيس يضرب اعتناق
البحرية واحد بعد واحد حتى قتل العشرة وورماهم على شاطئ البحر ثم التفت إلى نور
الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته وقال له انزل إلى المراسي فخاف نور الدين
من ضرب السيف ونهض قائماً وثب في البر وقطع المراسي ثم طلع في السفينة أسرع
من البرق وصار الرئيس يقول له افعل كذا وكذا ودور كذا وكذا وانظر الهجوم ونور
الدين يفعل جميع ما يأمر به الرئيس وقلبه خائف مرعوب ثم رفع شراع المركب
وسارت بهما في البحر الجحاج المتلاطم بالأمواج وقد طاب لها المارح كل ذلك ونور
الدين ماسك بيده الراجم وهو غريق في بحر الأفكار ولم يزل مستغرقا في الفكر ولم
يعلم بما هو مخبأ له في الغيب وكلما انظر إلى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم الجهة التي هو
متوجه إليها بل صار مشغولاً في فكره وسواس إلى أن انضج النهار وطلعت الشمس
فعند ذلك نظر نور الدين إلى الرئيس فراه قد أخذ خيسته الطويلة بيده وجذبها فطلعت
من موضعها في يده وتأملها نور الدين فوجدها خيصة ملصقة بـ ورائه تأمل نور الدين
في ذات الرئيس ودقق النظر فيما فاذا هي السيدة هريم معشوقته وكانت قد تحيلت
بتلك الخيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلميته وأخذت جلده وجهه وركبته
على وجهها فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طار عقله من
الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها من جبابك يا هيمتي وسؤلى وغاية مطلبى ثم أن
نور الدين هزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الأمل والارب فرددصوته باطيب
النعنمات وأنشد هذه الأبيات

قل لقوم هم لعشقي جهنموا * في حبيب ما إليه وصلوا

عن غرامى بين قومي فاسألوا * قد حلا ظمى ورق الغزل

في هوى قوم بقلبي تزلوا

ذكرهم عندي يزيل السقام * عن فؤادى ويزيح الالام

زاد شوقى وهيامى عندهما * أصبح القلب كئيباً مغرماً

وبه فى الناس سار المثل

أنالاً أقبل فيهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة

لكن الحب رمانى حسرة * أشعلت منه بقلبي جرة

حرها فى كبدي يشتعل

من عجيب قد أباحوا سقمى * مع سهادى طول ليل مظلم

كيف راموا بالتجاني عدي * واستحلوا في الهوى سفك دمي

وهم في جورهم قد عدلوا

ياترى من الذي أوصاكم * بالتجاني عن قتي هواكم

ولعمري والذي أنشاكم * نقل العذال قولاً عنكم

كذبوا والله فيما نقلوا

لا ازاح الله عني غلاما * لا ولا أشفي قلبي غلاما

يوم أشك من هواكم مللاً * أنا لا أرضى سواكم بدلاً

عذبوا قلبي وان شئتم صلوا

لي فؤاد لم يحل عن حبكم * لويعاني حسرة من صدكم

سخط هذا والرضامن عندكم * ما تشاءوا فافعلوا في عبيدكم

هو بالروح لكم لا بجعل

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له من هذه حالته ينبغي أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الاندال وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف باحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الاهوية كلها واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله يا سيدتي لو أطلت على هذا الامر ملت من شدة الخوف والفرع خصوصاً مع نار الوجود والاشتياق وأليم الفرق فتمحكت من كلامه وقامت من وثها وساعتها وأخرجت شيئاً من الماء كولد والمشروب فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وبعد ذلك أخرجت من البواقيت والجواهر وأصناف المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة مما خفي عليه وغلامته من الذي جاءت به من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح كل ذلك والرأي معتدل والمركب سائرة ولم يزل الأساثر ينحدر حتى أشراف على مدينة اسكندرية وشاهدوا أعلامها القوية فلما وصلوا إلى الميناء طلع نور الدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها هناك وأخذ معه شيئاً من الذخائر التي جاءت بها مريم وقال لها يا سيدتي أطلع بك إلى اسكندرية مثل ما أحب وأشتهي فقالته ولكن ينبغي أن يكون بسرعة لأن التراخي في الأمور يورث الندامة فقعدت مريم في السفينة وتوجه نور الدين إلى بيت المطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقاباً وازاروا ما تحتاج اليه كعادة قساة اسكندرية ولم يعلم بما لم يكن له في حساب من تصرفات الدهر أبي العجب العجيب هذا ما كان من أمر نور

الدين ومريم الزنارية (وأما) ما كان من أمر أيها الملك افرنجية فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدوها فسأل عنها من جوارها وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت الى الكنيسة وبعد ذلك لم نعرف لها خيرا فبينما الملك يتحدث مع الجوارى والمخدم في تلك الساعة واذا بصريختين عظيمتين تحت القصر قد دوى لهما المكان فقال الملك ما الخبر فقالوا له أيها الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا نواب الخوخة الذي في الكنيسة من جهة البحر مفتوحا والاسير الذي كان يخدم الكنيسة قد فقد فقال الملك ان كانت سفينتي في البحر قد فقدت فبنتي مريم فيها بلا شك ولا ريب ثم ان الملك دعا رئيس المينا وقال له وحق المسيح والدين الصحيح ان لم تلحق سفينتي في هذه الساعة بعسكر وتأتي بجن فيها لاقتلنك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مشلة ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب الجوز من الكنيسة وقال لهما ما كنت تسمعين من الاسير الذي كان عندك في شأن بلاده من أي البلاد هو فقالت له كان يقول أنا من مدينة اسكندرية فلما سمع الرئيس كلام الجوز رجع من وقته وساعته الى المينا وصاح على الجارية وقال لهم تجهزوا وحلوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم يزلوا مسافرين ليلا ونهارا حتى أشرفوا على مدينة اسكندرية في الساعة التي طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزيرا ليعرج الذي كان اشتراها من نور الدين فأرأوا السفينة مربوطة فعرفوها فربطوا مراكبهم بعيدا عنها وأتوا اليها في مركب صغيرة تدعم على ذراعين من الماء وفي تلك المركب مائة مقاتل ومعهم الوزيرا ليعرج لانه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا ولما سمحت الاولم يزلوا سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فهجموا عليها وحلوا حبلها واحدة فلم يجدوا فيها أحدا الا السيدة مريم فأخذوها هي والسفينة اتى هي فيها بعد أن طاعوا على الشاطئ وأخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مراكبهم وقد فازوا ببغيتهم ومطلبهم من غير قتال ونزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد طاب لهم الريح ولم يزلوا مسافرين على حفاة الى أن وصلوا الى مدينة افرنجية وطلعوا الى السيدة مريم الى أيها وهو في تحت ملكته فلما نظرا اليها أبوها قال لها ويا لك يا خائنة كيف تركت دين الآباء والاجداد وحصن المسيح الذي عليه الاعتماد واتبعت دين الاسلام الذي قام بالسيف على رغم الصليب والاصنام فقالت له مريم أنا ما لي ذنب لاني خرجت في الليل الى الكنيسة لازور السيدة مريم وأتبرك بها فبينما أنا في

غفلة واذا بسراق المسلمين قد هجموا على وسدوا في وسدوا وثاقى ووضعوني في السفينة
وسافر واني الى بلادهم فقادعتهم وتكلمت معهم في دينهم الى ان فكروا وثاقى وما
صدقت ان رجالك ادر كوني وخلصوني وانا وحق المسيح والدين الصحيح قد فرحت
بفكاكي من ايديهم غاية الفرح واتسع مسدري لذلك وانشرح حيث خلصت
من أسرهم فقال لها ابوها كذبت يا فاجرة يا عاهرة وحق بحكم الانجيل ومنزل التوريم
والخليل لا يدل من ان اقتلك افعيت قتله وامثل بك اشنع مشلة اما كفالك الذي
فعلته في الاول ودخل علينا محمالك حتى رجعت اليه يهتاتك واحتياك ثم ان الملك
امر بقتلها وصلبها على باب القصر فدخل عليه الوزير الاور في تلك الساعة وكان
مغرمابها قديما وقال له يا مولانا الملك لا تقتلها وزوجتي ها وانا احرص عليها غاية
الحرص وما ادخل عليها حتى ابني لها قصر امن الحجر الجمود واعلى بنيانه حتى
لا يستطيع احد من السارقين الصعود عليه واذا فرغت من بنيانه ذبحت على باب
اربعة من المسلمين واجعلهم قربانا للمسيح عني وعننا فانهم عليه الملك يز واجها واذن
للقسيسين والرهبان والبطارقة ان يكلوا عليهم اله فكلوا عليها الوزير الاور واذن ان
يشرعوا لها في بنيان قصر مشيد يليق بها فسرعت العمال في العمل * هذا ما كان من
امر الملك وابنته (واما) ما كان من امر نور الدين والرحل العطار فان نور الدين
لما توجه الى العطار استأمن من زوجته ازارا ونقايا كنساء اسكندرية ورجع معهما
الى البحر وقصد محل السفينة التي فيها مريم فوجد البحر قفرا والمزار بعيدا فصار قلبه
خزينا فبكى بدمع متواتر واشد قول الشاعر

سرى طيف سعدى طارقا فاستفزني * سحيرا وصحبي في القلار قود

فلما انتهنا للخيال الذي سرى * ارى الجوقفرا والمزار بعيد

فحشى نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمينا وشمالا لم رأى ناسا مجتمعين على الشاطئ
وهم يقولون يا مسلمون ما بقر المدينة اسكندرية حرمه حتى صار الا فرنج يدخلونها
ويخطفون من فيها ويعودون الى بلادهم على غاية الامان ولا يخرج وراءهم احد
من المسلمين ولا من العساكر المأذون فقال لهم نور الدين ما الخبر فقالوا له ان مركبا
من امراكب الا فرنج فيها عساكر قد هجموا في هذه الساعة على المينا واخذوا سفينة
كانت راسية هنا عن فيها وراحوا على حماية الى بلادهم فلما سمع نور الدين كلامهم
وقع مغشيا عليه فلما افاق سألوه عن قصته فاخبرهم بخبره من الاول الى الآخر فلما
فهموا خبره صار كل منهم يشتمه ويتسبه ويقول له لاى شئ فعلت هذا ما تخترجها الا بازار

ونقاب وصار كل واحد من الناس يقول له كلام مؤلما ومنهم من يقول خلوه في حاله
يكفيه أجرى له وصار كل واحد يوجه بالكلام ويرمي سهام الملام حتى وقع
مغشيا عليه فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة وإذا بصاحبه العطار قد
أقبل فرأى الناس مجتمعين فشى جهتهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدا بينهم
وهو مغشى عليه فقع عند رأسه ونبهه فلما أفاق قال له يا ولدي ما هذا الحال الذي
أنت فيه فقال له يا عم إن جاريتي التي ذهبت مني قد جئت بها من مدينة أبيها في مركب
وقاسيت ما قاسيت في المحي بها فلما وصلت بها إلى هذه المدينة ربطت السفينة في البر
وتركت الجارية فيها وذهبت إلى منزلك وأخذت من زوجتك مصالح للجارية لا خرحها
بها من السفينة إلى المدينة فجاء الأفرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها وراحوا على
حمايتها حتى وصلوا إلى منكبهم فلما سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تأسف على
نور الدين أسفا عظيما وخرن عليه خنا جسيما وقال له يا ولدي لا شيء ما أحرجتهم من
السفينة إلى المدينة من غير أزار ونقاب ولكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام قم
يا ولدي واطلع معي إلى المدينة لعل الله يرزقك بحجارة أحسن منها فتسلي بها عنها وأجد
الله على عدم خسارتك فيها شيأ بل حصل لك الربح فيها واعلم يا ولدي أن الاتصال
والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله يا عم إنى ما أقدر أن أسلاها أبدا
ولا أترك طلبها ولو سقيت من أجلها كأس الردى فقال له العطار يا ولدي وأى شيء
في ضميرك تريد أن تفعله فقال له نويت أن أرجع إلى بلادهم وأدخل مدينة
أفرنجية وأخاطب بنفسي فاما لها واما عليها فقال له يا ولدي إن في الأمثال السائرة ما كل
مرة تسلم الجرة وإن كانوا ما فعلوا بك في المرة الأولى شيأ ربما يقتلونك هذه المرة لاسيما
وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين يا عم دعني أسافر وأقتل من أجلها صبرا وكان
بمصادفة القدر مركب راسية في الميناء مجهزة للسفر وركبها قد قضت جميع أشغالها
وفي تلك الساعة ظفروا أو نادوا فقتل فيها نور الدين وسافرت تلك المركب عدة أيام وقد
طاب لركابها الوقت والريح فبينما هم سائرون وإذا بمركب من مراكب الأفرنج
دائرة في البحر الجحاج لا يرون مركبا الا وياخذونها خوفا على بنت الملك من سراق
المسلمين وإذا أخذوا مركبا يوصلون جميع من فيها إلى ملك أفرنجية فيذبحهم ويوفى بهم
نذره الذي كان نذره من أجل ابنته فرأوا المركب التي فيها نور الدين فأخذوها وأسروا
كل من كان فيها وأتوا بهم إلى الملك والدا السيدة مريم فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم
مائة رجل من المسلمين فامر بذبحهم في الوقت والساعة ومن جلتهم نور الدين فذبحوهم

كلهم ولم يبق منهم الا نور الدين وكان الجلاد آخر مشقة عليه لصغر سنه ورشاقته قد
 ظمأه الملك عرفه حق المعرفة فقال له أما أنت نور الدين الذي كنت عندنا في المرة
 الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمي نور الدين وانما اسمي
 ابراهيم فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذي وهبتك للجور القيمة على
 الكنيسة لتساعدنا في خدمة الكنيسة فقال له نور الدين يا مولاي أنا اسمي ابراهيم
 فقال له الملك ان الجور قيمة الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين
 أو غيره فبينما هم في الكلام اذ ابالوزير الاعور الذي تزوج مريم قد دخل في تلك
 الساعة وقبل الارض بين يدي الملك وقال له أيها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بنياته
 وأنت تعرف اني نذرت للمسيح اذا فرغت من بنيائه أن اخرج على بابه أربعين من المسلمين
 وقد ابتل لاخذ من عندك أربعين مسلما فاذا بهم واوى بهم نذر المسيح ويكونون في
 ذمتي على سبيل العوض ومضى جاءني اسارى اعطيتك بدلم فقال الملك وحق المسيح
 ما بقي عندي غير هذا الاسير وأشار الى نور الدين وقال له خذوا هذه الساعة
 حتى ارسل اليك البقية اذا جاءني اسارى من المسلمين فعند ذلك قام الوزير الاعور واخذ
 نور الدين ومضى به الى القصر ليذبحه على عتبة بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير
 قد بقي علينا من الدهان شغل يومين فاصبر علينا وأخذ زج هذا الاسير حتى نفرغ من
 الدهان عسى أن يأتي اليك بقية الاربعين فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفي بذرك في
 يوم واحد فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين فاخذه ومقيدا جائه اعطشوا ما يتحسر على
 نفسه وقد نظر الموت بعينه واتفق بالامر المقدر والقضاء المبرم انه كان للملك حصانان
 أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والاخر لاحق وكانت الملوكة الاكاسرة بحسرة
 تحصيل واحد منهما وكان أحدهما أشهب نتيما والاخر أدهم كالليل الخالص وكانت
 ملوك الجزائر جميعا يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نعطيهم جميع
 ما يطلبه من الذهب والاحمر والدر والجواهر فلم يقدروا أحدا على سرقة واحد من هذين
 الحصانين فحصل لأحدهما مرض في عينيه فاحضر الملك جميع البياطرة لدوائه
 فعجزوا عنه كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذي تزوج بنته مريم فرأه مهموما
 من قبل ذلك الحصان فارد أن يزيل همه فقال أيها الملك اعطني هذا الحصان وأنا
 أدأويه لك فاعطاه فقوله الى الاصطبل الذي فيه نور الدين محبوبس فلما فارق هذا
 الحصان أخاه صاح صيحة عظيمة ومسهل حتى أزعج الناس من الصياح فعرف أنه
 ما حصل منه هذا الصياح الا لفرقه لاختيه فذهب وأعلم الملك بذلك فلما تحقق الملك
 كلامه قال اذا كان ذلك حيوانا ولم يصبر على فراق أخيه فكيف بذوى العقول ثم أمر

القلمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم قولوا للوزير ان
 الملك يقول لك ان الحصانين انعام منه عليك لاجل خاطر ابنته مريم فبينما نور الدين
 نائم في الاصطبل وهو مقيد مكبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على عيني أحدهما
 غشاوة وكان عنده بعض معرفة باحوال الخيل وعمارسة دوائها فقال في نفسه
 هذا والله وقت فرصتي فأقوم وأكذب على الوزير وأقول له أداوى هذا الحصان
 وأعمل له شياً يتلف عينيه فيقتلني وأستريح من هذه الحياة الذميمة ثم ان نور الدين
 انتظر الوزير الى أن دخل الاصطبل فنظر الحصانين فلما دخل قال له نور الدين
 يا مولاي أى شئ يكون لي عليك اذا ناداؤيت لك هذا الحصان واعمل له شياً
 يطيب عينيه فقال له الوزير وحياة رأسى ان ناوئته أعنتك من هذا الذبح وأخليك
 تتمنى على فقال يا مولاي مري بك يدى فأمر الوزير بإطلاقه فخنض نور الدين وأخذ
 زجاجة كرا وسحقه وأخذ جيرا بلاطني وخططه بماء البصل ثم وضع الجميع في
 عيني الحصان وربطهما وقال في نفسه الآن تغور عيناه فيقتلني وأستريح من
 هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس اللحم
 وتضرع الى الله تعالى وقال يارب في علمك ما يغني عن السؤا فلما أصبح
 الصباح وأشرقت الشمس على الزواوي والبطاح جاء الوزير الى الاصطبل وأزال
 الرباط عن عيني الحصان ونظر اليهما فرأهما أحسن عيون ملاح بقدره الملك الفتح
 فقال له الوزير يا مسلم ما رأيت في الدنيا مثلك في حسن معرفتك وحق المسبح والدين
 الصريح انك أعجبتني غاية الاعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل يطار في
 بلادنا حتى تحير فيه ذو والالباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه حلة سنية
 وجعله ناظراً على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه في طبقة على الاصطبل
 وكان في القصر الجدة الذي بناه للسيدة مريم شبكاً مطلى على بيت الوزير وعلى
 الطبقة التي فيها نور الدين فبعد نور الدين مدة أيام أكل وشرب ويتلذذ بطرب ويأمر
 وينهى على خدمة الخيل وكل من غاب منهم لم يعلق على الخيل المربوطة على الطوالة
 التي فيها خدمته يرميه ويضربه ضرباً شديداً ويضع في رجليه القيد الحديد وفرح
 الوزير بنور الدين غاية الفرح ولم يدري ما يؤول أمره اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى
 الحصانين ويمسحهم بيده لما يعلم من عزهما عند الوزير ومحبة لهم وكان لذلك الوزير
 بنت بكر في غاية الجمال كانهما غزلت ردأ وخضن مائد فالتفتي انها كانت حالسة ذات
 يوم من الأيام في الشباك المطلى على بيت الوزير وعلى المكان الذي فيه نور الدين اذ
 سمعت نور الدين يغني ويسلى نفسه على المشقات بانشاده هذه الايات

يا عاذلا أصبح في ذاته * منعما يزهو بلذاته
 لو عضك الدهر بأفاته * أقلت من ذوق حاراته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 لكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوره
 فلأنتم من حارفي أمه * وقا من فرط صباياته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 كن عاذرا للعشاق في ما لهم * ولا تنكروا العذالم
 أبالك أن تشهد في حبيهم * محسرا من مرلوعانه
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى القواد
 لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعاء لمناياته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 لم يدر ما العشق وماذله * إلا الذي اسقمه طول له
 وضاع منه في الهوى عقله * وشربه من مرجر عانه
 آه من العشق وحالاته * أحرقت قلبي بحاراته
 كم عين صب في الدجى أسهرا * وأحرم الجفر لذبا كرى
 وكم أسأل دمعته أنهرها * تجرى على الخد بلوعانه
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 كم في الوري من مغرم مستهام * سهران من وجد بغير المنام
 ألبسه ثوب الضنا والسقام * من قد نفى عنه منامه
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 كم قل صبري وبري أعظمي * وسال دمي منه كالعندم
 من أهيف قد زاد فيه سقمي * قد كان حلوا في عذائنه
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 مسكين من في الناس مثلي عشق * وبات في حنج الليالي أرق
 إن عام في بحر التجافي غرق * يشكوا من العشق وزفرانه
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحاراته
 من ذا الذي بالعشق لم يبتل * ومن نجا من كيد لا سهل

ومن يمش منه بعيش خلى * وأين من فاز براحة
آه من العشق وحالاه * أحرق قلبي بحسراته
يارب دبر من به قدبلى * وأكفله أنتم أنت من كافل
وارزقه منكم بالثبات الجلى * والطف به فى كل آفاته
آه من العشق وحالاه * أحرق قلبي بحسراته

فلما فرغ نور الدين من كلامه وخلص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير فى نفسها
وحق المسج والدين الصبح ان هذا لمسلم شاب ملتح ولكنه لاش . أنه عاشق مفارق
فيا ترى مشوق هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ما عنده أم لا فان كان معشوقه
مليحاً مثله بحق له اسالة العبرات وشكوى الصبايات وان كان غير مليح فقد ضيع
عمره فى الحسرات وحرم طعم اللذات وكانت مريم انزل به زوجه الوزير بمحبوبة نور
الدين قد نقلت الى القصر الجديد أمس ذلك اليوم وعلمت منها بنت الوزير بضيق
الصدر فعمرت على أن تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا الغلام وما سمعت منه من النظام
فما استتمت الفكر فى هذا الكلام حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجه أبيها لاجل
أن تؤانسها بالحديث فذهبت اليها فأتت صدرها ضيقاً ودموعها جار به على خدها
وهي تبكى البكاء الشديد الذى ما عليه من مرید وتككمكف لعبرات وتتشدد
هذه الايات

مضى عمرى وعمر الوجداني * وصلى ضاق من فرط اشتياقي
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عود أيام التلاق
ليتنظم الرصال على اتساق

أقلوا اللوم عن ملوب قلب * فحبل الجسم من شوق وكرب
ولا ترموا حشاها بسهم عتب * فما فى الكون أشقى من محب
فرالعشق حلوفى المذاق

فقات بنت الوزير بالسيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتهة الفكر فلما
سمعت السيدة مريم كلام بنت الوزير قد كرت ما فأت من عظيم اللذات فانشدت
هذه الايات

ساصبر وتطينا على هجر صاحبي * وأرسل در الدمع نثراً على نثر
عسى فخرج بأقبح اللهاته * طوى كل يسر نحت أجنحة العسر
فقات لها بنت الوزير أيتها الملكة لا تضيق صدرى وقوى منى فى هذه الساعة إلى شباك
القصر فان عندنا فى الاصطبل شاباً مليحاً رقيق القوام حلواً كالام كاه عاشق مفارق

فقال لها السيدة مريم بأى علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت لها بنت الوزير
أيتها الملكة عرفت ذلك بأنشاده القصائد والأشعار أثناء الليل وأطراف النار فقالت
السيدة مريم في نفسها إن كان قول بنت الوزير يبين فهذه صفات الكتيب المسكين
على نور الدين فياهل ترى هو ذلك الشاب الذى ذكرته بنت الوزير ثم إن السيدة مريم
زادها العشق والهيام والوجد والغرام فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت
الوزير إلى الشباك ونظرت منه فرأته محبوبها وسيد هانور الدين ودقت النظر فيه
فعرفته حق المعرفة ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبتها أياها ومن نار الوجد وألم
الفراق والزلة والاشتياق قد زاد به التحول وهو يشد ويقول

القلب مملوك وعيني حاربه * ليس لها سحابة بحارية
بين بكائي وسهادى والجوى * ألوح والحزن على أحبابه
وأحزنتى وأحسرتى والوعى * تكاملت أعدداه ثمانية
وتأبتهما خمسة فى خمة * الألقوا واستمعوا مقالبه
ذكر وفكر وزفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليه
محبسة وغربة وصبوة * ولهفة وقرحة ترانيسه
تل اضطرابى واحتمالى للهوى * لما نأى صبرى دنت أجاليه
قد زاد فى قلبى تباريح الجوى * يا سائل عن نار قلبى ماهيه
مادل دمعى موقد فى مهجتي * فنار قلبى لا تزل حاميه
أصبحت فى طوفان دمعى غارقا * ومن لظى هذا الهوى فى هاويه

فلما رأت السيدة مريم سيدها على نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نظامه
تحققت أنه هو ولكن كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسيح والدين
الحجج ما كنت أحسب أن عندك خبر بضيق صدرى ثم نهضت لوقتها وساعتها وقامت
من الشباك ورجعت إلى مكانها ومضت بنت الوزير إلى حالها ثم صبرت السيدة مريم
بوجه من الزمان ورجعت إلى الشباك وحلست فيه وصارت تنظر إلى سيدها نور الدين
وتتأمل فى لطفه ورقة معانيه فرأته كالسيد راذا يد فى ليلة أربعه عشر لكنه دائم
الحسرات جارى العبرات وقد تذكر ما فات فأنشد هذه الايات

أملت وصل أحببى مانلته * أبدا ومر العيش قد واصلته
دمعى يحاكى البحر فى جريانه * وإذا رأيت عواذلى كفكفته
آه على داع دعى بفسراقنا * لو نلت منه لسانه لقطعته
لا عتب للأيام فى أفعالها * من رجت بصرف المرما جعته

فلن أسير السواكم كاصدا * والقلب في ساحاتكم خلفته
 من منصفى من ظالم متعكم * يزداد ظمأ كلما حركته
 ملكته روجي ليحفظ ملكه * فأضاعني وأضع ما ملكته
 أنفقت عمرى في هوالك ولبتى * أعطى وصولا بالذى أنفقت
 بالها لرسالم بمهجتى * يكفى من الهجران ما أنفدته
 أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه نصيرى فرقته
 أحلته ظمى ظل به البلاء * انى لراض بالذى أحلته
 وجرت دعوى مثل بحر زاهر * لو كنت أعرف مسل كما سلكت
 وخشيت خوفا أن أموت بحسرة * ويفوت منى كل ما أملت
 فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المغارق أنشاد هذه الأشعار حصل عندها من
 كلامه اقشعرار ما فاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين
 بليت عن أهوى نل القيتسه * ذهلت فلم أملك لسانا ولا طرفا
 وكنت معدا للعتاب ففانرا * فلما اجتمعنا ما قيت ولا حرفا
 فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه نعمة
 سيدتى مريم الزنارية بلا شك ولا ريب ولا رجم غيب فيا ترى دل طنى صحيح وانها هي
 أو غيرها ثم ان نور الدين زادت به الحسرات فتأوه وأنشده هذه الايات
 لما آتى لآئى فى الهوى * صادفت حبي فى مكان حبيب
 ولم أفه بالعب عند اللقاء * ورب عتب فيه برء العكيب
 فقال ما هذا السكوت الذى * صدك عن هذا الجواب المسيب
 فقلت يا من تدغدج اجاهلا * بحال أهل العشق كالمستريب
 علامة العاشق فى عشقه * سكوته عند لقاء الحبيب
 فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواة وقرط ساوكت فيه بعد البسملة
 الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورحمته وبركاته وأحبرك أن الجارية مريم تسلم
 عليك * وهى كثيرة ما شوق اليك * وهذه مراسلتها لك * فساعة ودوع هذه
 الورقة بين يديك * انهض من وتلك وساعتك وادتم بما تريد منك غاية الاهتمام
 والحذر كل الحذر من المخالفة ومن أن تنام فاذا مضى ثلث الليل الاول فان تلك الساعة
 من أسعد الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الاشد الحصانين وتخرج بها خارج المدينة
 وكل من قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهم فاذا قلت ذلك لا يملك أحد فان
 أهل هذه المدينة وانثون بقفل جميع الابواب وانتظرنى حتى أجيء ليلى ثم ان السيدة

مريم لفت الورقة في سنديل حرير ورمتها الى نور الدين من الشباك فأخذها وقرأها
وقهم ما فيها وعرف انه بخط السيدة مريم فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل
له معها من طب الوصال فأسال دمع العينين وأنشد هذين البيتين
أنا في كتاب منكم جفجف ليلة * فبهني شوقا اليكم وأبراني
وذكرني أنسامي بوصالك * فمسحان رب بالتفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما حزن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل
ثلاثه الاول ثم قام من دونه وساعته الى الحصانين ووضع عليهم ماء حين من أحسن
السروج وخرج من باب الاصطبل وقل الباب وسار بهما الى باب المدنة وحلس
ينتظر السيدة مريم هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة مريم
فانها ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معد لها في ذلك التصرف فوجدت
الوزير الأعور حاله في ذلك المجلس متكئا على مخدة من ريش النعام وهو مستريح أن
عمده اليها أو يخاضعها فلما رأتها ناجت ربهما قلها وقالت اللهم لا تبلغه مني أربا ولا
تحكم علي بالحقاسة وهذا الطهارة ثم أتبلت عليه أظهرت له المودة وحلست في جانبه
ولاطفته وقالت له يا سيدي ما هذا الاعراض عنادك هو ملك تبه ودلال عايب ولكن
صاحب المشل أسأري يقول اذا بارا السلام سلمت القعود على القيام فان كنت
يا سيدي الوزير ما تحيى عندي وتخطبني أجيء ناعنك يا حاطبك فقال لها الوزير
أفصل والخم لي لك ملكة الدار الافرنجية والبلاد الرومية وادخل أنا الامن ببعض
خدامك وأزل غلمانك وانما أنا مستريح أن أهدم على مخاطبك الفخيمة أيتها الملكة
العظيمة ووجهي سلم في الارض فقالت دعنا من هذا الكلام وأنت يا بلما كل
والمشرب ودي أسأري بق المدام فعند ذلك صاح الوزير على حواريه وخدسه وأمرهم
باحضار المالك والمشرر فقدموا له سفرة فيها مائدة وطاروسج في الجار من سمان
وأفراخ اللحم ورضيع الضأن وأوزمين ودجاج محروم وغالب أنواع الدواجن فدت
السيدة مريم يدها الى السفرة وأكلت وصارت تامل الوزير وتقبله في فمه ومازالا أكلا
حتى اكتم قيا من الأكل ثم غسلا أيديهما بعد ذلك رفعت الخدام سفرة الطعام
وأحضروا قفر المدام فصارت مريم تملأ وتسرب وتسقيه وزادت في تعليل مزاجه
أكثر مما كان يكفيه حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما
غاب عقله عن الدواب وتمكن منه الشراب مدت يدها الى جيبها وأخرجت منه
قرصا من البخ المكر في الذي اذا شم منه القيل أدنى رائحة فام جعلته من الايام
وكانت أعدته هذه الساعة ثم غالطت الوزير ومرتته في القدح وملائته وأعطته اياه

فطار عتله من الفرح وما صدق انها تناوله اياه فتناول القديح وشربه فاستقر في جوفه حتى خر صريعاً على الارض في الحال فقامت السيدة مريم على قدميها وعلمت الى خرجين كبيرين وملأتهم بما خاف حمله وغلا ثمنه من الجواهر والياقوت واصناف المعادن الثمينة ثم حلت معها شياً من المأكول والمتطيب وابست آلة الحرب والكفاح من سائر انواع السلاح واخذت معها النور الذين ما يسر من الملابس الملوكية الفاخرة واهبة السلاح القاهرة ثم انها حملت الحرجين عنى اكنة فها فرحة بما اصابته من حصول الارب والمسير بحجة محبوباتها الى بلاد العرب * وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت الى نور الدين فلما كان من امر حريم * واما كما كان من امر نور الدين العاشق الحزين فانه قد قد على باب المدينة ينتظرها وما قد الحصانين في يده فأرسل الله عز وجل عليه النوم قيام وسبحان من لا ينام كانت ملوك الجزائر في ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة على سرقه هذين الحصانين أو أحدهما أو كان في تلك الايام عبد أسود تربي بالجزائر يعرف بسرقة الخيل فعمارت ملوك الافرنج يرشونه بمال كثير لأجل أن يسرق الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين يعطوه جائزة كاملة ويخضعوا عليه خلعاً سنية وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة أفرنجية وهو مختلف فيها فلم يدر على أخذ الحصانين وهما عند الملك فلباهم ما لاوزر بالاعور وتقاها الى الاصطبل فرح العبد فرحاً شديداً وطمع في أخذهما وقال وحق المسج الآن اطمانيت على سرقتهما ثم ان العبد خرج في تلك الليلة قاصداً ذلك الاصطبل لسرق الحصانين فبينما هو ماش اذا لاحت منه النفاة فرأى شخصاً نائماً وهو نور الدين وسقاوا الحصانين في يده ففر بهما فقدم اليه ونزع المقاود من رؤسهما ومشى قليلاً وأراد أن يركب واحداً ويسوق الآخر فدامه واذا بالسيدة مريم قد أقبلت وهي حاملة للحمحين على كفها فظنت ان العبد نور الدين فتناوته احداً الحرجين فوضعه على الحصار ثم ناولته الثاني فوضعه على الحصة الاخرى وهو ساكن وهي تظن انه نور الدين ثم انه خرجت من باب المدينة والعبد ساكن فقالت لذي يأسى يدى نور الدين ما انت ساكن فالتفت العبد اليها وهو مغضب وتلها أي شئ تقولين يا جارية فسمعت ببريرة لعبد ففرت: انها غير نورة نور الدين فرفعت رأسها اليه ونظرته فوجدت له مناخير كالابريق فلما نظرتة صار الضياء في وجهها ظلاماً فغالت له من تكون يا شيخ نبي طام وما املك بين الانام فقال لها يا بنت اللثام أنا اسمي مسعود سراق الخيل والناس بناء فاردت عليه بشئ من الكلام بل جردت من وقتها السيف وضربت به على عاتقه فطاح بطلع من علاقه فوقع صريعاً على الارض محتبط في دمه وعجل الله بروحه



الى النار وبش القرار فنت ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدا منهما
وقبضت على الآخر بيدها ورحعت على عقبها تقتش على نور الدين لقيته راقد في
المكان الذي وعدته بالاجتماع فيه والمقاومة في يده وهو قائم بخط في نومه ولم يعرف
يديه من رحليه ونزلت عن ظهر الحصان ولكرته بيدها ما ذهبت منه نومها مريوبا وقال
له يا سيدتي الحمد لله على مجيئك سالمة فقالت له قم اركب هذا الحصان وأنت ساكت
فقام وركب الحصان وركبت السيدة مريم الحصان الثاني وخرجا من المدينة وسارا
قليلا وبعد ذلك التفتت سريما الى نور الدين وقالت له أما قلت لك لا تنم فانه لا أفزع من
يتام فقال يا سيدتي أنا ما كنت لامن برد فؤادي بيمينك وأي شيء حرق يا سيدتي فآخبرته
بمحاربة العبد من المبتدأ الى المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدا
في اسراع المسير وقد سبنا أمرهما الى اللطيف الخبير وصارا يتحدثان حتى وصلوا الى
العبد الذي قتله السيدة مريم فرآه مريما في تراب كأنه عفرت فقالت مريم لنور
الدين انزل حرد من ثيابه وخذ سلاحه فقال لها يا سيدتي والله أنا لا اقدر ان انزل عن
ظهر الحصان ولا أفزع عنده ولا أقرب منه وهو يحب نور الدين من حلقته وشكر
السيدة مريم على فعلها وتعجب من شجاعته ووجه قلبها ثم سارا ولم زالا ساثرين سيرا
حشيشا بقبضة الليل الى أن أصبح الصباح وأضوء بنوره لاح وانقشرت الشمس على
الرواق والبصاح فوصلوا الى مرج أبيض فيه الغزلان تمرح وقد اخضرت منه الجوانب
وتشككت فيهما الأشجار من كل جانب وأزهاره كبطون الحيات والطيور على غصون
أشجارها عاكفات يغردن بحلاوة الاصوات باختلاف اللغات وجدادله تجري مختلفة
الصفات كما قال فيه الشاعر وأجاد وفي بالمراد

وقال الفرسه الرضاء واد * وقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا * حمو المصعات على القطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا * ألذمن المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا * فحجبها ويأذن للنسيم
يروح حصاه حالية المذارى * وتلمس جانب العقد النظيم
﴿وكما قال الآخر﴾

واذا نرتم طيره وغديره * يشتاقه الوهان في الاسجار
فكاته الفردوس في أفئاته * ظل وفا كهة وماء جارى
فعند ذلك نزلت السيدة مريم هي ونور الدين ليستريحا في ذلك الوادي فلما نزل به أكل

من أثماره وشربها من أنهاره واطلقت الحصانين يا كليلان في المرعى فصا رايأ كلان
 وشربان من ذلك الوادي وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران حكايتهم
 وما جرى لهما وكل منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق وما قاساه من البعد
 والاشتياق فبينما هما كذلك وإذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار ومعاصهيل الخيل
 وقعت على السلاخ وكان السبب في ذلك ان الملك لما زوج ابنته للوزير ودخل عليها في
 تلك الليلة وأصبح الصبح وأراد الملك ان يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك
 في بناتهم فقام وأخذ أقفصه من الحرير ونثر الذهب وافضه ليقاطفها الخدمه
 والمواشط ولم ينزل الملك ينشئ هو وبض الغلمان الى أن وصل الى القصر الجديد وطلع
 فيه فوجد الوزير يرمي على الفرائش يعرف رأسه من رجليه فالتفت الملك في القصر
 عينا ونمعا لا يرى ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله وأمر باحضار الماء الساخن والغسل
 الكبير والكندر فلما أحضر والى ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هزه فخرج
 البنج من جوفه كقطع الجبن ثم ان الملك سعط الوزير بذلك ناي مرة فانتبه فساله عن
 منته مريم فقال لا أيها الملك الاعظم لا أعلم على ما غير انهاء فتتي قدحاً من
 الخمر يسدها فخذ ذلك الوقت ما ترنت روي الا في هذه الساعة ولا أعلم ما كان من
 أمرها فلما سمع الملك كلام الوزير بر صار الضمياء في وجهه ظلاماً وجر داسيف من قزابه
 وضرب به الوزير على رأسه فخرج يلعن من أضراسه ثم ان الملك أرسل من وقته وساعته
 الى الغلمان والساحل فلما حضر واطلب منهم الحصانين قتالوا له أيها الملك ان
 الحصانين فقد في هذه الليلة وكبيراً فقد معهما أيضاً فاما لما أصبح ما وجدنا الابواب
 كلها مفتحة فتال الملك وحق دبتى وما يعتهده يقينى أخذ الحصانين اذ ابستى هي
 والاسير الذى كان يخدم السكيسه وكان قد أخذها في المرة الاولى وعرفته حتى المعرفة
 ولم يخلصه من يدى لاهذا الكلب الوزير الاعور وقد حوى بقلبه ورحم الله عظامه
 ثم ان الملك قام من وقته وساعته ودعا بولاده الثلاثة وكانوا أبطالا شجعاناً كل واحد
 منهم يقوم بالفارس في حومه الميدان ومقام الضرب والاحسان فصاح الملك عليهم
 وأمرهم بالركوب وركبوا وركب الملك بحملتهم مع خواص بطارته وأرسل دولته
 وأكابرهم وساروا يتبعون آثاره ما فلحقوه ما في ذلك الوادي فلما رأته مريم منهنضت
 وركبت جوادها وتقلدت بسيفها وحات آله سلاحها وقالت لنور الدين احالك وكيع
 فليلك في القتال والحرب والنزال فقال لها ان ثباتى في النزال مثل ثبات الوتد في الخال
 وأنشد يقول يا مريم اطرحي ألبم عتاني * لا تقصدي قتلى وطول عدابي
 من أين لي أنى أكون محارباً * انى لا فرغ من تعميق غراب

وإذا نظرت الفار أنزع خيفة * وأبول من خوفى على أثوابي
 اتألا أحب الطعن الاخلاوة * والتكس بعرف سطوة الازباب
 هذا هو الرأى السديد وما يرى * من دون هذا الرأى غير صواب
 فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والظلم أظهرت له الفتح والا
 يتسام وقالت له يا سيدي نور الدين الهمام الزم مكانك وأنا كفيلك شرهم ولر كانوا عدد
 الرمل ثم انها قامت من وقتها وساعتها ونهيات للقتل وأطلقت من يدها طرف العنان
 وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها كأنه الربع الهبوب
 أو الماء إذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها ففرس
 أهل عصرها وأنها لأن أباهما عليها الركب على ظهور الخيل وخوض بحار الحرب
 في ظلام الليل وقالت لنور الدين اركب جوادك وكن خلف ظهري وإذا انهزمنا
 فاحرص على نفسك من الوقوع فان جوادك ما بلحقه لاحق فلما نظرا إلى انقته
 مريم عرفها غاية المعرفة والتفت إلى ولده الأكبر وقال له يا برطوط يا ملقب برأس
 القلوط ان هذه اختل مريم لاشك فيها ولا ريب قد حملت وطلبت حرم بنا وقتنا فإبرز
 اليها واجمل عليها ولكن وحق المسيح والدين الصحيح انك ان ظفرت بها لا تقناها حتى
 تعرض عليها دين النصارى فان رجعت إلى دينها القديم فارجع بها أسيرة وان لم ترجع
 اليه فأتيناها أقبح قتلة ومثل بها أشنع مثله وكذلك هذا الملعون الذي معه هامل به أقبح
 مثله فقال له برطوط السمع والطاعة ثم برز إلى أخته مريم من وقته ورائته وحمل عليها
 فلاقته وحملت عليه ودفنت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يا مريم أما يكفي ما جرى
 منك حيث تركت دين الآباء والاجداد واتبع دين السواحين في البلاد بعني دين
 الاسلام ثم قال وحق المسيح والدين الصحيح ان لم ترجعي إلى دين آباءك واجدادك من
 الملوك وتساكي فيه أحسن السلوك والأقتل أشرف قتلة وأمثل بك أنت مع مثله فضحكك
 مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيئات أن يعود ما فات أو يعش من مات بل
 أجرك أن أشد الحشرات أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذي عم نفعه
 وهداه فانه هو الدين الحق فلا ترك الهدى ولو سقيت كؤس الردى فلما سمع الملعون
 برطوط من أخته هذا الكلام صار الضياع في وجهه كالظلام وعظ ذلك عليه وكبر
 لديه فالتب بينهما القتال وغاص الاثنان في الاودية العراض الطوال وصبرا على
 الشدائد والاهوال وشخصت لهما الابصار فأخذها الانهار ثم تجحولا مليا واعتراكا
 طويلا وصار برطوط كلما يفتح لأخته مريم بابا من الحرب تبطله عليه وتسده بحسن
 صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفتها وفروسيته ولم يكن لنور الدين شغل الا التضرع

والابتهاال لامتلا طاقته له في النزال ولا مقاومة الا بطلان في الحرب والقتال ولم
 تنزل السيدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة حتى ان عقد على رؤسهما الغبار
 وغاب الفارسان عن الابصار ولم تنزل مريم نحو له ونحو له وتسدد عليه طرقة حتى كحل
 من ألم الحرب وبطلت همته واضمحل عزمه وضعفت قوته فضر به بالسيف على عاتقه
 فخرج يلج من دلائقه وعجل الله به روحه الى النار وبش القسار ثم ان مريم جالت في
 حومة الميدان وموتف الحرب والطعان وطلبت البراز وسالت الانحياز وقالت هل من
 مقاتل هل من مناجز لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز لا يبرز لي الا بطلان أعداء الدين
 لا سقيم كأس العذاب المهين يا عبدة الاوثان وذوى الكفر والطغيان هذا يوم تبيض
 فيه وجوه أهل الايمان وتسد وجوه أهل الكفر بالرحمن قلما رأى الملك وده التكبير
 قد قتل لطم على وجهه وشق أثوابه وقال آء من فرقة الانسان أحبابه وبعد ذلك صاح
 على ولده الاوسط وقال يا برطوس يا مقلب بخر السوس ابرز يا ولدى بسرعة الى قتال
 أختك مريم وخدمتها نار أخيك برطوط واثنى بها أسيرة ذليلة حقيرة فقال له يا أبت
 السمع والطاعة ثم انه برز لاخته مريم وحمل عليها فلاقته وحملت عليه ونقدت بكليتها
 اليه وتقاتلت هي واياه قتالا شديدا شديدا من القتال الاول فرأى أخوها الثانى نفسه
 عاجزا عن قتالها من عظم ما نظرت من قوة شجاعتها وشدة نزاعها فأراد الفرار والحرب
 فلم يمكنه ذلك من عظم بأسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولاصقته وضايقته
 ثم ضربته بالسيف على رقبته فخرج يلج من امته والحقته بأخيه وبعد ذلك جالت في
 حومه الميدان وموتف الحرب والطعان وقالت أين الفرسان والشجعان أين الوزير
 الاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك صاح أئوها بقلب جريح وطرف من الدمع
 قريح وقال انها قتلت ولدى الاوسط وحق المسيح ثم انه صاح على ولده الصغير وقال له
 يا فتيان يا مقلب بسلح الصبيان اخرج يا ولدى الى قتال أختك وخدمتها نار أخويك
 وضادهم اء لك أو عليل وان ظفرت بها قتلها أقبح قتله ومثل بها أقبح مثله فعند ذلك
 برز لها أخوها الصغير وحمل عليها فلاقته بهمتها وبراعتها وحملت عليه بحسن صناعتها
 وقوة شجاعتها ومعرفتها بانواع ملاعب الحرب وفروسياتها وقالت له يا عدو الله رعدو
 المسلمين لالحقنك بأخويك الطاغين الباغين الى النار وبش مشوى الكافرين ثم انها
 جذبت سيفها من غمده وضربته فقطعت عنقه وذراعيه وقد لحقته بأخيه وعجل الله
 بروحه الى النار وبش القرار قلما رأى البطارقة والفرسان الذين كانوا راكبين مع
 أيها أولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا أشجع أهل زمانهم وقع في قلوبهم الرعب من
 السيدة مريم وأدهشهم الهيبة ونكسوا رؤسهم الى الارض وأيقنوا بالهلال والذما

والذل والبوار وأحرق قلوبهم من الغيظ بلهب النار فولوا الاديبار وركنوا الى الفرار
فلما نظر الملك الى اولاده وقد قتلوا والى عساكره وقد انهزموا أخذته الحيرة والانهيار
واحترق قلبه بلهب النار وقال في نفسه ان السيدة مريم قد استقلت بنا وان خاطرت
بنفسي وبرزت اليها وحدي ريم غلبت علي وقهرتني فتقتلني أشنع قتلة وتملئني أقيح
مثلة كما قتلت أخوتها لانها لم يبق لها فينا رجاء ولذا فينا رجوعها طمع والراي
السديد ان أحفظ حرمتي وأرجع الى مدينتي واقعد على تختي مملكتي لثلاث
مده من بدى وأبقى فاقداله كما فقدت أولادي الذين كانوا ساعدي وعضدي
ثم ان الملك أرنخي غنان فرسه ورجع الى مدينته ومحل مملكته فلما استقر في
قصره انطلقت في قلبه النار من أجل قتل أولاده الثلاثة وانتهزاه عسكره وهتك
حرمته فلما استقر نصف ساعة حتى طلب أرباب دولته وكبراء مملكته وشكائهم
فعل ابنته مريم معهم قتلها أخوتها وهم أولاده الثلاثة وما لاقاه من القهر والحزن
واستشارهم فأشاروا عليه كلهم أن يكتب كتابا الى خليفة الله في أرضه أمير المؤمنين
هرون الرشيد ويلم به هذه القضية فكتب الى الرشيد كتابا مضمونه بعد السلام على أمير
المؤمنين ان لنا بنتا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسير من أسراء المسلمين اسمها
نور الدين علي ابن التاجر تاج الدين المصري وأخذها ليلًا وخرج بها الى ناحية بلاده وأنا
أسأل فضل مولانا أمير المؤمنين ان يكتب الى سائر بلاد المسلمين بخصميتها وارسالها
الىنا مع رسول امين من خدام حضرة أمير المؤمنين ومن جهة مضمون ذلك الكتاب
اننا نجعل لكم في نظير مساعدتكم لنا على هذا الامر نصف مدينته ودمه الكبرى
لتبنوا فيها مساكن للمسلمين ويحمل اليكم خراجها وبه ان كتب الكتاب برأي أهل
مملكته وكبراء دولته بعد أن وضعوا خطوط ايديهم فيه ثم قال لوزيره ان أتيت بها فلك
عندي أقطاع أميرين وأخلع عليك خلعة بطرازين ثم ناوله الكتاب وأمره ان يسافر
الى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب الى أمير المؤمنين من يده الى يده فسافر
الوزير بالكتاب وسار يقطع الاودية والقفار حتى وصل الى مدينة بغداد فلما دخلها
مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح ثم سأل عن نصر أمير المؤمنين هرون الرشيد
فدلوه عليه فلما وصل اليه طلب اذنان أمير المؤمنين في الدخول عليه فأذن له في ذلك
فدخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب الذي من ملك أفرنجية وصحبته من
الهدايا والتحف النفيسة المحمية ما يليق بأمير المؤمنين فلما فتح الخليفة المكتوب قرأه
وفهم مضمونه وأمر وزراءه من وقته أن يكتبوا المكاتب الى سائر بلاد المسلمين ففعلوا

ذلك وبينوا في المكاتب صفة مريم وصفة نور الدين وأنهما داربان فكل من
وجدتهما ليقبض عليهما ويرسلهما إلى أمير المؤمنين وحذروهم من أن يعطوا في ذلك
أهبالا أو أهبالا أو غفلة ثم ختمت الكتب وأرسلت مع السعة إلى المال فيبادروا في
امتثال الأمر وساروا فيقتشون في سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة وهذا ما كان
من أمر هؤلاء الملوك وأنه اعلمهم وأما ما كان من أمر نور الدين المصري ومريم الزنارية
بنت ملك أفرنجية فانهما ركباً بعد انهما زام الملك وعساكره وساروا إلى بلاد الشام ودمشقر
عليهما السطار فوصلوا إلى مدينة دمشق وكانت الطلائع التي أرسلها الخليفة تدبعتهما
إلى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه ما مور بالقبض عليهما متى وحدهما ليحضرهما
بين يدي الخليفة فلما كان يوم دخولهما إلى دمشق أقبل عليه الجواسيس فدألوها
عن اسميهما فأخبرهم بالصحيح وقصاعليهما قصتهما وجمع ما جرى عليهما فعرّفوهم
وأخبروهم وسارواهما إلى أمير دمشق فأرسلهما إلى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام
فلما وصلوا إليها سلموا في الدخول على أمير المؤمنين هرون الرشيد فأذن لهم فلما
دخلوا عليه فلو الأرض بين يديه وقالوا له يا أمير المؤمنين ان هذه مريم الزنارية بنت
ملك أفرنجية وهذا نور الدين المصري الأسير الذي أفسدها على أيمن وسرتها من بلادها
وهرب به إلى دمشق وجدناهما وقت دخولهما دمشق وسألهما عن أسمائهما
فأجابونا بالصحيح فعند ذلك أتينا بهما وحضرناهما بين يديك فظفر الخليفة إلى مريم
فأهأرشيقه القوام فصيح الكلام مليح أهل زمانها فريده عصرها وأوانها حلوة
اللبان نابتة الجنان فلما وصلت إليه بليت الأرض بين يديه ودعت له بدوام عز والنعم
وزوال البؤس والمقم فأعجب الخليفة بحسن قوامها وعذبة أفعالها وسرعة
جوابها فقال لها هل أنت مريم الزنارية بنت ملك أفرنجية قالت نعم يا أمير المؤمنين
وأم المؤمنين وحامي حومة الدين وابن عم سيد المرسلين أفعد لك التفت الخليفة
فراى غلام نور الدين المصري شابا مليحا حسن الشكر كأنه البدر را النسيم إلى تمامه
فقال له الخليفة هل انت على نور الدين الأسيرين التاج الدين المصري قال نعم يا أمير
المؤمنين وعمدة القاصدين فقال الخليفة كيف اخذت هذا الصبي من مملكتك أيها
وهرب به فصار نور الدين يحدث الخليفة بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى آخره
فلم انزعج من حديثه تعجب الخليفة من ذلك غاية العجب واخذه من العجب فرط
الطرب وقال ما أكثر تقاسيه الرجال ثم انه التفت إلى السيد مريم وقال لها يا مريم
اعلمي ان والدك ملك أفرنجية قد كاشفني شأنك فيا نقولين قالت خليفة لله في أرضه
يا قائما بسنة نبيه ومرضه خلد الله عليك النعم وأجارك من البؤس والنعم ان دعوات

في دين الاسلام لانه هو الدين القويم الصحيح وتركتم سبله الكفرة الذين يكذبون على المسيح وقد صرت مؤمنة بالله الكريم ومصدق بما جاء به رسوله الرحيم أعبد الله سبحانه وتعالى وأوحده وأحمد خاضعة اليه وأمجده وأنا قائله بين يدي الخليفة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليقطره على الدين كله ولو كره المشركون فهل في وسعك يا امير المؤمنين ان تقبل كتاب ملك المحدثين وترسلني الى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام ويهظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويعتقدون الوهية عيسى وهو مخلوق بين الانام فان فعلت بي ذلك يا خليفة الله أتعلق بأذيالك يوم العرض على الله واشكوك الى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم فقال امير المؤمنين يا ربي معاذ الله ان افعل ذلك ابدا كيف ارد امرأة مسلمة موحدة بالله ومصدق برسوله الى سانهى لله ورسوله عنه فقالت هي يم اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال لها الخليفة يا ربي بارك الله فيك وزادك هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب وهو اني لا أفرط فيك أبدا ولو بذلت لي من أحلك ملء الارض حواهر أو ذهبا فطبي نفسي وأقرى عينا وانتشر حتى صدر أو لا يكون خاطرك الا طيبا فهل رضيت أن يكون هذا الشاب على المصري لك بعبلا وتكوني أنت له أهلا فقالت يا امير المؤمنين كيف لا أرضي أن يكون لي بعبلا وقد اشتراني بعبله وأحسن الى غايه الاحسان ومن تمام احسانه انه خاطر بروحه من أجل مرات عديدة فزوحها به الخليفة هرون الرشيد وأمهرا من عنده بعد أن أحضر القاضي والشهود وأكابر دولته وعقد عليها نحو الدين وكان يوما مشهودا ثم بعد ذلك التفت أمير المؤمنين الى وزيره مالك فرجحة وكان حاضرا في تلك الساعة وقال له هل سمعت كلامها كيف أرسلها الى ايها الكافرا طاعني وهي مسلمة ورميها ساءا وادخلها عليا خصوصا وقد قتلت أولاده فأتحمل أنا ذنبها يوم قيامه وقد قال الله تعالى وان يجعل الله لك كافرين على المؤمنين سبيلا فارجه الى ملكك وقل له ارجع عن هذا الامر ولا تطعم فيه وكان ذلك الوزير أحق فقال للخليفة يا امير المؤمنين وحق المسيح والدين الصحيح لا يمكنني الرجوع بدون هييم ولو كانت مسلمة لاني لو رجعت الى ايها بدونها قتلتني فقال الخليفة خذوا هذا الملعون وانتلوه وانتلوه راند هذا البيت

هذا جزاء من عصي * من فوقه وعصانيه

ثم أمر بضرب عنق ذلك الوزير فقالت السيدة مريم يا امير المؤمنين لا تنحس سيفك بدم هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربت به فاطاحت رأسه عن جسده فذهب الى دار

البوار و بش الفرار فتعجب الخليفة من صلابه ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على نور الدين خلعة سنينة وأفردها مكانا في قصره ورتب لهما المراتب بما يحتاجانه وأمر أن ينقل اليه ما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاواني النفيسة وأقام في بغداد مدة من الزمان وهما في عادة اللذة والسرور وبذلك اشتاق نور الدين الى أمه وأبيه فعرض الامر على الخليفة وطلب منه اذنا في التوجه الى بلاده لزيارة والديه وأقاربه ودعا عيريم وأحضره ايين بديه فجازاه بالتوجه وزوده من الخف والهدايا المثمنة وأرصادها ببعضها ثم أمر بالكاينب الى أمراء مصر المحروسة وعلمائها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو واهله وعياله وأكرمهم غاية الاكرام فلما وصلت الاخبار الى مصر المحروسة فرح الساجد تاج الدين بعود ولده نور الدين وكذلك امه فرحت بذلك غاية الفرح وخرج للقاء الكبراء من الأمراء وأرباب الدولة والرؤساء على حسب رصية الخليفة ولاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا للعالمين اجتمع فيه الحب والمحوب واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل لهم الضيافات في كل يوم على كل واحد من الأمراء والاحباب الطرءاء وفرحوا بهم الفرح الزائدوا كرمهم الاكرام المتصاعد ولما اجتمع نور الدين بالديه فرح به غاية الفرح وزال عنهما الهم والترح وكذلك فرح بالسيدة مريم واكرماها غاية الاكرام ووصلت اليهم الهدايا والخف من سائر الأمراء والتجار الفضلاء وصاروا كل يوم في انشراح جديد وسرور اعظم من سرور العيد واقاموا في فرح ولذات ونعم حزيلة معطرات واكل وشرب وسرور مدة من الزمان الى ان اتاهم هاذم الذات ومفرق الجماعات فسيحان الحى الذى لا يموت وييده مقاليد الملك والملكوت

بحمده تعالى قد تم طبع هذه القصة البهية البهية المشتملة على ما جرى
على نور الدين المصرى مع حارثه مريم الزنارية وذلك الطبع
الزاهر والوضع الاثيق له هـ بالمطبعة الادبية الكائنة
بسوق الخضار القديم عصر الحجية ادارة ذى الهممة
السامية القدر حضرة محمود افندى ختم
وذلك في اواخر شهر رمضان سنة
١٣١٨ هـ جريه على صاحبها
افضل الصلاة وازكى
التحية
تم

